تاريخ المصريين ١

مصطفى كامل
في محكمة التاريخ

بقلم

الدكتور عبد العظيم رمضان





اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

تاريخ المصريين 1

مصطفى كامل
في محكمة التاريخ

بقلم

الدكتور عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الاخراج الفنى : محمد قطب

الغلاف : اسامه سعيد

« تاريخ المصريين »

التاريخ هو الذى يصنع الضمير الوطنى والقومى للأمة ، ولذلك درجت الأمم على العناية بتاريخها ، والتنقيب فيه ، واجلاء ما غمض منه ، لكى تتعرف على ذاتها ، وتستكشف شخصيتها ، وتعرف ما أسهمت به فى الحضـــارة البشرية ، وتتبين حجمها بين الأمم •

والتاريخ هو ذاكرةالبشرية ، وهو وسيلتها لفهم الحـــاضر ، والاستعداد للمستقبل • وشعب بلا تاريخ هو كانسان بلا ذاكرة، لا يســـتطيع ممارســـة خبراتـــه ، أو التعرف على قـــدراته ، أو مواجهة حاضره ، أو التعامل مع مستقبله • ومن هنا فمعرفـــة التاريخ شرط لفهم الحاضر وبناء المستقبل •

ولقد بدأ وعى الشعب المصرى على « المصرية » ــ أو على « القومية المصرية » بالمعنى الحديث ــ بسبب الظروف الطبيعية لمصر ، التى أنشأت مجتمعا زراعيا على ضفتى النيل ، تجمعـــه فائدة مشتركة فى اقامة حكومة مركزية ، وتكوين كيان موحد ينظم الافادة من حياة النهر ، ويدرأ به خطر فيضـــانه • وقد ظل

هذا الكيان الموحد قائمـا منذ القدم ، وعبر مختلف العصـور وتعاقب الغزاة والعهود ، فتكونت مقومات القومية المصرية منذ القدم ، لتسبق مقومات أية قومية أخرى عبر التاريخ •

وعندما فتح العرب مصر ، لم يعتبر المصريون هـذا الفتح عربيا ، بل فتحا اسـلاميا بالدرجة الأولى ، وقد ساعد اختفاء السيادة العربية وانتقالها الى أيدى العناصر التركية والمملوكية والعثمانية على تأصيل الفكرة الاسلامية ــ أو فكرة « الجامعة الاسلامية » بالمعنى الحديث ــ لدى المصريين ، خصوصا بعد أن فقدت لفظة « عربى » مدلولها الذى انتشر فى العصر الأموى ، ورجعت الى معناها القديم الذى يلتصق بالبادية •

وعندما سنحت الفرصة « للعربية » ــ أو الشعور القومى العربى ــ بالدخول الى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، حال دون ذلك النمو التاريخى المسـتقل لمصر منـذ بدايـة القرن التاسع عشر ، ونمو الشعور القومى المصرى مع انتشار مبادىء الثورة الفرنسية والثقافة الغربية ، ثم وقوع مصر تحت الاحتلال البريطـانى ، الذى أجبر الحركة الوطنية المصرية على الاعتماد على السيادة التركية لاكراه انجلترا على الجـلاء عن مصر ، فى الوقت الذى كانت الشعوب العربيـة تتململ فيه تحت وطـأة الحكم العثمانى وسوء الادارة العثمانية ، مما أوجد تناقضـا عارضا بين الحركة الوطنية المصرية والحركة القومية العربية •

وقد زال هذا التناقض تدريجيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وحلت محله « جامعة الدول العربية » ، التى تأسست فى أواخر الحرب العالمية الثانية • وتعرض الشعور القومى العربى فى مصر للتجربة مع نشأة القضـــية الفلسطينية ، وقيام دولة اسرائيل ، ودخول مصر حرب فلسطين ـ أو الحرب العربية الاسرائيلية الأولى ـ سنة ١٩٤٨ • ثم أصبحت مصر زعيمة حركة القوميـــة العربية فى عهد ثورة ٢٣ يوليو ، واندمج الشعور القومى المصرى مع الشعور القومى العربى فى شخص عبد الناصر ، الذى أصبح رمز الفكرة القومية العربية ، ولم يعد أى مصرى يحس بتناقض بين شعوره القومى المصرى وشعوره القومى العربى •

وجاءت حرب يونيـــة ١٩٦٧ نقطة تحول فى تاريخ حـــركة القومية العربية ، لأن نصرا تحققه الدول العربية فى ذلك الحين كان زعيما بأن يوحد الأمة العربيـــة تحت لواء القومية العربيـــة من الخليج الى المحيط ، ولكن الهزيمة الساحقة جاءت لتهدم معها كل ما شيدته حركة القومية العربية فى العقود السابقة ، وتراجع الشعور القومى العربى ، حتى انه عندما أطلقت مصر الطلقـــة الأولى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ لم يكن يعلم بهذا العزم غير دولة عربية واحدة هى سوريا ، التى اشتركت معها فى المعركة •

وقد أعاد نصر العبور الشعور القومى العربى من جديد ، وبلغ قمته فى قرار الدول العربية المصـــدرة للبترول استخدام

سلاح البترول فى المعركة ، الذى جاء ـ لسوء حظ الأمة العربية متأخرا ـ لأن الدائرة كانت قد أخـذت تدور على الجيوش المصرية والسورية .

وقد أفلح السادات فى الخروج بجيشـه سليما من المعركة بقرار قبول وقف اطلاق النار ، ولكنه جرح الشـعور القومى العربى على مسـتوى العـالم العربى ، بسبب الموقف المزايـد لسوريا ، التى رفضت القرار فى البداية ، وقبلته بعدها مرغمة ، بعد أن أدانت موقف مصر ! وبسبب ردود الفعل العربيـة من مفاوضات الكيلو ١٠١ واتفاقيتى فض الاشتباك الأول والثانى ، وظهور ما عرف باسم « جبهة الرفض العربية » ، وبلوغ الانشقاق ذروته بمبادرة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ ، وما تلاها من اتفاقيتى كامب ديفيد والمعاهـدة المصرية الاسرائيلية ، واتخـاذ الدول العربية قرارا بطرد مصر من جامعة الدول العربيـة ، ونقل مقر الجامعة من القاهرة الى تونس .

وبذلك تمزق الشعور القومى العربى شـذرا مذرا ، فى الوقت الذى كانت تتردى فيه الأوضاع العربية بالحرب الأهلية اللبنانيـة ، والغزو الاسرائيلى للبنـان ، والحرب الأهليـة الفلسطينية ، والحرب الايرانية العراقية ، التى اتخذت فيها كل من ليبيا وسوريا موقف التأييد لايران الفارسية ضـد العراق العربيـة ، واستتباب أقـدام اسرائيـل فى الأراضى الفلسطينية

والجولان ـ مما مكن للشعور الاقليمى فى كل بلد عربى على حساب الشعور القومى العربى العام ٠

وفى مصر ، وبسبب ظروفها الخاصـــة فى تزعم حركة القومية العربية ، وتدهور أوضاعها الاقتصادية بعد حرب أكتوبر بسبب أعباء الحرب وما سبقها من استعدادات ـ فقد الشـــعور الوطنى المصرى قوته الدافعة التى كانت له قبل غلبة الشـــعور القومى العربى فى عهد عبد الناصر ، مما أفقد الشخصية المصرية كثيرا من خصائصها النشطة التى كان لها دورها الخـــلاق فى حقل التنمية الاقتصادية قبل الثورة فى عصر القومية المصرية ، أو بعد الثورة فى عصر اندماج القومية المصرية فى القومية العربية ٠

من أجل ذلك علت بعض الصيحات لاحياء الوطنية المصرية ، وتعميق الشعور الوطنى المصرى ، واستعادة خصائص الشخصية المصرية ، وبعث العزة الوطنية ، والاعتزاز بمصر فى النفوس ، فى اطار الشعور القومى العربى الحديث ، والشـــعور الاســـلامى القديم ٠ ولم يكن ذلك ليتحقق الا من خلال شحذ ذاكرة الشعب المصرى التاريخية ، واعادة اهتمامه بتاريخه ٠ وقد جرت فى ذلك محاولتان ، الأولى فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، والثانية فى مركز الدراسات السياســـية والاستراتيجية بالأهرام ، الذى يرأسه الأستاذ السيد ياسين ، لاصـــدار عمل علمى يجمع تاريخ مصر على مر العصور على نسق كتاب « المجمل فى التاريخ

المصرى » الذى صدر فى عام ١٩٤٢ ، والذى شاركت فى تأليفه هيئة من أساتذة التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة • ولكن هاتين المحاولتين لم يقدر لهما التنفيذ حتى الآن •

ومن هنا تأتى أهمية مشروع هذه السلسلة من الكتب فى « تاريخ المصريين » الذى حملنى مسئوليته الدكتور سمير سرحان، رئيس هيئة الكتاب ، فى فبراير الماضى ، لتعريف الشعب المصرى ، والشباب خاصة ، بتاريخه بأسلوب علمى سلس ، وبسعر للكتاب يكون فى متناول كل فرد • وقد رحبت بالفكرة ، التى رأيت أن تمتد لتشمل تاريخ مصر كله ، القديم والاسلامى والحديث والمعاصر ، وكلفت عددا كبيرا من المؤرخين والباحثين والمختصين فى التاريخ بالمساهمة فى هذا العمل الوطنى القومى الكبير • وقد أبت ثقة الدكتور سمير سرحان بى وحسن ظنه بأعمالى العلمية الا أن أبدأ هذه السلسلة بعمل تاريخى من تأليفى، واتفقنا على أن يكون هذا العمل هو : « مصطفى كامل فى محكمة التاريخ » ، الذى أتشرف بتقديمه •

وأملى أن يلقى هذا المشروع الوطنى والقومى الكبير ما هو جدير به من الترحيب والتقدير •

مصر الجديدة فى أول يناير ١٩٨٧

أ•د• عبد العظيم رمضان

تقــديم الكتــاب

تأثرت نظرة الشـعب المصرى لمصطفى كامـل بمدرسة الحزب الوطنى فى كتابة التاريخ ، وهى التى كان يمثلها المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى، الذى كتب سلسلته المعروفة والقيمة فى تاريخ الحركة القوميـة والوطنية المصريـة . ولمـا كانت مدرسـة الحزب الوطنى فى كتابة التاريخ هى مدرسـة سياسية وليست مدرســة تاريخيـة ، فقـد ترتب على ذلك اصطباغ نظرة المصريين الى تاريخهم الحديث والمعاصر بصبغة الحزب الوطنى السياسية ، وهى صبغة منحازة بالضرورة تعمل باستمرار على تبرير أخطـاء الحزب الوطنى كلما وجدت الى ذلك سبيلا ، وتصـور زعماءه فى هالة من البطولة الفذة المجردة من الأخطاء البشرية . وقد سـاعد على نشر وجهـة نظر الحـزب الوطنى فى تاريخ مصر ما تمتع به المرحوم الأسـتاذ عبد الرحمن الرافعى من شـهرة قبل الثورة ، ثم ــ بعد الثورة ــ تبنى ثورة يوليو لنظرة الحـزب الوطنى لتـاريخ مصر المعاصر ، والمعادية لحزب الوفد ، بعد اصطدامها به على السلطة والحكم وعملها على تصفيته ، خصوصـا بعد أن لعب الأستاذ فتحى رضـوان، قطب الحزب

الوطنى دورا أساسيا فى هذا الصدد ، بعد أن اختير وزيرا للارشاد القومى على مدى سنوات .

على أنه لما كانت المدرسة التاريخية الحديثة تنظر الى البطولة الشعبية فى صورتها الانسانية ، وفى اطار التحامها بالشعب صانع البطولات ، وتعمل على تجريدها من هالات البطولة الالهية المنفصلة عن الواقع، وتعتمد بصور أساسية على الوثيقة التاريخية المجردة التى هى سيدة الأدلة ـ فمن هنا كانت هذه الدراسة عن مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ، التى تضع البطل فى اطاره التاريخى الطبيعى ، الذى يستند الى العلم لا السياسة . وتعيد الى التاريخ هيبته ووقاره كعلم من أهم العلوم الانسانية ، وليس كأداة فى يد المدارس السياسية المختلفة تشكله وتصبغ أحداثه كما تشاء .

مصر الجديدة فى أول يناير ١٩٨٧

د. عبد العظيم رمضان

في بيت بحي الصليبة بالقاهرة ، ولد مصطفى كامل في ٤ أغسطس ١٨٧٤ ومصر حبلى بالثورة ضد الوصاية الأجنبية ، التي كانت في ذلك الحين تدفع برءوس أموالها ، ومن ورائها نفوذها السياسي ، لاخضاع مصر للسيطرة الاستعمارية .

وعندما بلغ الخامسة من عمره ، كانت مصر تشهد أعظم حركة دستورية في تاريخها الطويل ، بقيادة الزعماء الدستوريين وعلى رأسهم محمد شريف باشا . وفي يونية ١٨٧٩ كانت الوصاية الأجنبية تستعرض عضلاتها بخلع الخديو اسماعيل ، الذي أراد المقاومة ، وجاء ابنه توفيق الى العرش وهو يعي درس خلع والده على يد الاستعمار .

وعندما بلغ مصطفى كامل سن السابعة من عمره ، سمع بمظاهرة عابدين ،التي هزت أرجاء مصر في ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، عندما وقف عرابي باسم الأمة المصرية يتحدى الخديو توفيق ، ويطالبه بالحكم الدستوري .

وفى الثامنة ، شهد مصطفى كامل الثورة تندلع فى البلاد ، وتقع السلطة فى يد الثوار ، ثم تنتهى نهاية حزينة بمدافع الأسطول البريطانى وهى تقذف طوابى الاسكندرية يوم ١١ يولية ١٨٨٢ . ثم يشهد الأيام الأولى السوداء للاحتلال بعد استسلام عرابى والقادة العرابيين ومحاكمتهم .

وفى العاشرة من عمره ، شهد مصطفى كامل شريف باشا وهو يستقيل استقالة مسببة مدوية فى ٧ يناير ١٨٨٤ ، احتجاجا على تدخل انجلترا ومطالبتها له باخلاء السودان ، وقال كلمته المأثورة : « اذا تركنا السودان ، فالسودان لن يتركنا » ! .

وقد رسخت هذه الأحداث الجسام فى ذهن الصبى مصطفى كامل ، وعبأت صدره ضد الاحتلال الانجليزى ، أى ضد بريطانيا بالذات .

ولاشك أن نشأة مصطفى كامل كان لها تأثير هام . فهو من أسرة عسكرية ، اذ كان والده على أفندى محمد ضابطا مهندسا فى سلاح الطوبجية (المدفعية) ثم فى بلوكات المهندسين ، ووصل الى رتبة اليوزباشى وقومندانا فى عهد عباس الأول ، ثم عين فى عهد سعيد باشا ضمن أركان حرب معيته ، وأحيل الى الاستيداع فى عهد اسماعيل ، ثم عين مهندسا ملكيا حتى عام ١٨٧٧ ، حيث أحيل الى المعاش .

وفى الوقت نفسه ، كانت والدة مصطفى كامل كريمة لضابط عسكرى أيضا ، هو اليوزباشى محمد أفندى فهمى . وقد تشربت فى بيت والدها بالروح الوطنية العسكرية المصرية ، ونقلتها الى مصطفى كامل فى الشكل الذى أجج شعوره الوطنى .

وعلى هذا النحو لم يكن مصطفى كامل كأى فرد من أقرانه، اذ تشرب من صغره الروح الوطنية بتركيز أكبر ، وكان على وعى أكبر بالكرامة والحرية والشجاعة ، مما دفعه الى رفض الظلم فى السادسة من عمره على يد مدرسه ، عندما أهانه ، وعاقبه بالحبس لمدة ساعتين ، لأنه أجاب على سؤال وجه الى زميل له لم يرد عليه . فطلب الى والده أن يلحقه بمدرسة أخرى غير مدرسة « والدة عباس الأول » الابتدائية بالصليبية ، فنقله الى مدرسة السيدة زينب الابتدائية التابعة لوزارة الأوقاف .

وفى عام ١٨٨٦ توفى والد مصطفى كامل وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فأصيب بصدمة شديدة ، وكفله من بعده أخوه الأكبر حسين بك واصف (حسين باشا واصف وزير الاشغال فيما بعد) ، فنقله الى مدرسة « القربية » قريبا من منزل جده لأمه ، الذى أقام فيه وأخوته .

وفى عام ١٨٨٧ حصل مصطفى كامل على شهادة الابتدائية ، وعمره ثلاثة عشر عاما . وكان الحصول على هذه الشهادة

فى ذلك الزمن ، الذى تقل فيه نسبة المتعلمين فى مصر الى أدنى حد ، عملا هاما ، الى الحد الذى كانت تعد له الاحتفالات ! ــ كما يحدث فى وقتنا الحاضر بالنسبة للحاصلين على درجتى الماجستير والدكتوراه ! ــ ولذلك فقد أقيم احتفال فخم لتسليم شهادات الابتدائية ، حضره خديو مصر بنفسه ! ، وهو الخديو توفيق سنة ١٨٨٧ ، وتسلم فيه الصبى مصطفى كامل شهادته .

وسرعان ما دخل المدرسة التجهيزية (الثانوية) ليواصل دراسته فى المرحلة الثانوية . وهى مرحلة كانت تتيح لأصحابها فى ذلك الحين التمتع برعاية وزير المعارف نفسه ! .

ولهذا السبب لا نعجب كثيرا اذا عرفنا أن مصطفى كامل فى هذه المرحلة كان على اتصال بعلى مبارك باشا وزير المعارف ، وكان هذا يدعوه الى بيته ويقدمه الى زواره من العظماء والكبراء والعلماء ! .

وقد حدث أن رسب فى مادة من المواد هو وكثير من زملائه، بسبب نظام الامتحان ، فانطلق بنفسه الى منزل الوزير يشكو اليه سوء هذا النظام ، ويطلب تعديله ! ، وكان يجادل الوزير بجرأة وشجاعة ! .

وقد أشار الى ذلك الشيخ على يوسف ، صاحب جريدة

المؤيــد ، بقوله : « دخلت ذات ليلة على على مبــارك باشا فى منزله ، فى أوائل سنة ١٨٩٠ ، وهو يومئذ ناظر المعارف ، ومجلسه حافل بالفضــلاء والأدباء ، واذا بمصطفى كامل ، وكان يومئذ تلميذا بالمدرسة الثانوية ، يجادل الباشا فى أمره ، ويقول : « اننى لا أطلب منك الا ما وجــدت أنت من مثلك يوم كنت تلميــذا مثلى ! . وما يدريك ألا أكون عظيمــا أخدم وطنى غدا بأكثر مما تخدمه أنت اليوم ؟ » وبعد ما خرج ، ابتسم الباشا وقال : اننى أعجب كثيرا بشجاعة هــذا التلميذ ، ويلذ لى أن يتــكلم أمامى كثيرا بمثل هذه الشجاعة النفسية » .

ثم قــال الشيخ على يوسف : « من تلك اللحظــة عرفت مصطفى كامل ، وكأنما عرفت رجلا لا تلميذا فى المدرسة » ! .

وفى نفس العــام ١٨٩٠ أسس مصطفى كامل « جمعيــة الصليبة الأدبية » ، ليفرغ فيها شحنته من الخطابة والكتابة ، ويقف مساء كل جمعة بين زملائه يرتجل ما تمليه قريحته ! .

ومن الطريف أنه كان يتردد فى نفس الوقت على جمعيــة أخرى تســمى « جمعيــة الاعتدال » ، كانت تعقد جلساتهــا الأســبوعية بمدرســة الأمريكان ، ليتعرف على من فيهــا من الأدبــاء ! .

وهكذا كانت حياة مصطفى كامل فى المرحــلة الثانوية ، حافلة بالنشاط العلمى والثقافى ، كما كانت خصبة بالتعرف على

كبار رجالات بلده ، وهو أمر لا يتوفر لطالب المرحلة الثانوية ، بل ولا الجامعية فى وقتنا الحاضر ! • وكل ذلك أنمى شخصيته ، ومنحها أبعادا هيأته لدوره الوطنى الذى لعبه فى تاريخ مصر •

وتشير الدلائل الى أن مصطفى كامل كان يدرك بغريزته وشعوره الباطن أن حياته جد قصيرة ، فأراد أن يعيشها بالعرض لا بالطول ! وهو ما فعـله تماما حتى ليمـكن القول أنه اذا كان قد مات وعمره أربعة وثلاثين عاما ، الا أنه عاش ضعف عمره على الأقل ! ، وقدم لبلاده ما لا يقدم فى ضعف هـذا العمر ! •

فلم يكد يتم دراسته الثانوية سـنة ١٨٩١ حتى عزم على الالتحاق بمدرسة الحقوق الخديوية • ولم يكن هـذا الاختيار عشوائيا ، وانما كان لهدف عظيم ، هو اعداد نفسه للدفـاع عن قضية بلاده • وهو ما أفصح عنه حين وصف مدرسـة الحقوق بأنها « مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد » وقد كتب الى أخيه على فهمى ، الذى كان وقتذاك ضابطـا فى السودان ، يشرح أسباب أختياره مدرسة الحقوق ، فى خطـاب مؤرخ فى ١٢ يولية ١٨٩١ ، يقول فيه :

« العقبة الكئود التى أمامى ، وهى شهادة الدراسة الثانوية قد زالت • فقد نلتها بعد أن أضنت جسمى ، فأصبح نحيـلا لا صحيحا ولا عليلا ــ ولكنى أؤمل أن تعود الى القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية • فقد عزمت على الانضمام الى صفو

طلابها ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم • وأنت تعلم أنى أميل اليها كثيرا » • ثم ينهى الى أخيه عزمه على تأليف جمعية باسم « احياء الوطن » ! •

وقد التحق مصطفى كامل بالفعل بمدرسة الحقوق فى أكتوبر ١٨٩١ ، وهو فى السابعة عشرة من عمره • ولكن رغبته الداخلية فى مضاعفة حياته ، دفعته الى الالتحاق . فى العام التالى مباشرة ؛ أى فى أكتوبر ١٨٩٢ — بمدرسة الحقوق الفرنسية ، رغم نجاحه فى امتحان السنة الأولى ، ليجمع بين المدرستين ، ويضاعف دراسته القانونية ! • وهو جهد جبار ؛ لأن مصطفى كامل لم يكن يتقن اللغة الفرنسية ، بل كان ضعيفا بها ، باعترافه لأخيه على فهمى فى خطابه السالف الذكر — وكان عليه لذلك ، أن يدرس أيضا اللغة الفرنسية ليجيد الكتابة والخطابة بها ، بالاضافة الى دراساته القانونية • فكان يقضى النهار فى مدرسة الحقوق الخديوية ؛ ويقضى المساء فى مدرسة الحقوق الفرنسية • ومع ذلك فقد حصل على شهادة الحقوق من جامعة تولوز فى نوفمبر ١٨٩٤ ، أى بعد عامين اثنين ! •

والأمر المذهل أن هذه السنوات الثلاث التى قضاها مصطفى كامل فى مدرستى الحقوق الخديوية والحقوق الفرنسية — أى من أكتوبر ١٨٩١ الى نوفمبر ١٨٩٤ — لم تكن سنوات حماسة علمية فقط ، بل انه وقعت فى خلال هذه السنوات الثلاث

أعظم الأحداث التى كونت حياة مصطفى كامل السياسية وتتمثل فى ثلاثة لقاءات تاريخية :

أولها ـــ لقاء مصطفى كامل بعبد الله النديم ، خطيب الثورة العرابية المشهور .

والثانى ـــ لقاء مصطفى كامل بالخديو عباس الثانى .

والثالث ـــ لقاء مصطفى كامل بأوروبا واحتكاكه لأول مرة بالحضارة الغربية ! .

وبالنسبة للقاء مصطفى كامل بعبد الله النديم ، فمن المعروف أن النديم كان قد صدر أمر بالقبض عليه فى أعقاب الاحتلال كغيره من زعماء الثورة العرابية ، ولكنه استطاع الهرب داخل البلاد . ورغم تخصيص مكافأة قدرها ألف جنيه للقبض عليه ، وتهديد الحكومة لكل من يأويه بالاعدام ، الا أن النديم تمكن من الاختفاء لمدة زادت على تسع سنوات ، بمساعدة الأهلين ! ، حتى توفى الخديو توفيق فى ٧ يناير ١٨٩٢ ، وتولى عباس حلمى الخديوية خلفا له ، وأصدرت وزارة الداخلية عفوا عن عبد الله النديم ، وسمح له بالعودة الى القاهرة .

وقد سارع مصطفى كامل الى لقاء النديم عندما علم بظهوره فى القاهرة ، وقدم نفسه اليه كطالب من طلبة الحقوق ،

فرحب به ، ونشأت بين الفتى والنديم صلة كان لها تأثيرها البالغ فى مصطفى كامل من ناحيتين :

الناحية الأولى ، اتجاه مصطفى كامل الى العمل الصحفى ، بعد أن شرح له النديم أهمية الصحافة ودورها فى تنوير وتكوين الرأى العام • خصــوصا بعد أن افتتح النديم نضاله فى أعقاب عودته الى القاهرة باصــدار مجلة باسم « الأستاذ » ، صــدر العدد الأول منها فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ •

فبعد صــدور مجلة « الأســتاذ »بستة أشــهر ، أى فى ١٨ فبراير ١٨٩٣ ، أصدر مصطفى كامل العدد الأول من مجلة شهرية باسم « المدرسة » ، كمجلة « وطنية أدبية تهذيبية علمية » تصدر فى غرة كل شهر عربى • وجعل شعارها المطبوع فى صدر كل عدد « حبك مدرستك حبــك أهلك ووطنك » ! • وجعل نفسه مديرها ومحررها ! • وقد نوه النديم بها عند صــدورها فى مجلة « الأستاذ » ، تشجيعا لمصطفى كامل ! •

ولم يخف مصطفى كامل فى العدد الأول من مجلة «المدرسة» تأثره بعبد الله النديم ومجلة « الأستاذ » ، فقد كتب يقول انه أنشأ هــذه الجريــدة « لتكوين مركزا لجمــع درر فرائــد « الأســتاذ » ! ــ الأمر الذى يوضح مــدى اعتماد مجــلة « المدرسة » على مجلة « الأستاذ » ! •

كما اتبع مصطفى كامل فى مجلة « المدرسة » نفس أسلوب عبد الله النديم ، وهو أسلوب المحاورات . فكما كتب عبد الله النديم فى أولى أعداد « الأستاذ » حوارا بين النديم وشخص يسمى حبيب ، عن فضل اللغة العربية وأهميتها — كذلك كتب مصطفى كامل فى مجلة « المدرسة » « محاورة بين الأستاذ والتلميذ » ، « محاورة بين صديقين » — وهكذا ! .

وكما كتب النديم عن أهمية تعليم أبناء الشعب ، وضرورة تعميم التعليم ، كذلك كتب مصطفى كامل عن أهمية تعميم التعليم بقوله : « ان تعميم التعليم من أهم الأسباب الداعية لنمو العمران » .

كذلك حين كتب عبد الله النديم يدافع عن الفلاح المصرى ويصفه بالذكاء والنباهة ؛ فعل مصطفى كامل المثل ، فروى قصة مبالغ فيها عن تلميذ يبلغ من العمر عشر سنوات قادم من الصعيد ، استطاع أن يحل مسألة رياضية عجز مصطفى كامل وزملاؤه عن حلها ! ، مما دعا أكبرهم الى مخاطبة التلميذ قائلا : « أيها الفلاح ، أنت مثلنا متمدين » ! .

كما طالب مصطفى كامل الحكومة المصرية — « ان كانت حكومة أهلية » ! (أى وطنية) — أن تبذل كل جهدها فى نجاح حال الفلاح ومساعدته .

وكما تحدث النديم عن آداب الصوم وأحكامه فى شهر رمضان ، كذلك فعل مصطفى كامل فى العدد الثانى من مجلة المدرسة الصادرة فى ١٩ مارس ١٨٩٣ • كذلك عندما دافع عبد الله النديم عن سياسة الحجاب ، ودعا الى اتباعه لأنه « من قواعد الشرع والأدب » ـ حذا مصطفى كامل حذوه ؛ فكتب يقول : ان قواعد الشرع والأدب تقضى بضرب الحجاب على النساء ، فليس لهن أن يستخدمن بالمصالح كالرجال ؛ وانما يكفى أنهن يدبرن شئون المنزل ويهذبن أولادهن ! •

وقد كان من الطبيعى أن يتأثر مصطفى كامل بعبد الله النديم ـ الذى كان خطيب الثورة العرابية الأكبر ـ فى حياته الخطابية • فقد لاحظ بعض الباحثين انه على الرغم من أن مصطفى كامل قد تميز عن أستاذه بالمامه باللغة الفرنسية ومعرفته لآراء الغربيين ، الا أنه استخدم نفس الأسلوب المؤثر على المستمعين • فقد كان النديم ذا فصاحة وبيان ، وصوت جهورى ، وحجج قوية ، وجرأة فائقة فى مواجهة الجماهير ـ وكذلك كان مصطفى كامل ! • وكما ظهرت خطورة خطب النديم خلال الثورة العرابية ، كذلك ظهرت خطورة خطب مصطفى فى فترة نضاله لبعث الروح الوطنية التى خمدت فى كثير من النفوس •

هذا على كل حال هو الجانب الاول من [illegible] مصطفى كامل

بعبد الله النديم . أما الجانب الثانى فلا يقل خطورة ، فقد عرف مصطفى كامل من عبد الله النديم أسرار الثورة العرابيــة ، وأسباب فشلها ، ولذلك فقد تحــاشى الزج بالجيش فى حركته السياسية ، حتى لا يستفز الاحتــلال الى التدخل ، كما حــدث فى الثورة العرابيــة ، رغم أن الخديو عبــاس حلمى حــاول الاستعانة بالجيش فى حادثة الحدود المشهورة سنة ١٨٩٤ . وقد كان فشل الخديو عباس فى هــذه المحاولة ، من الأسباب التى عززت سياسة مصطفى كامل فى عدم الاستعانة بالجيش .

ففى ٢٤ يونية ســنة ١٨٩٥ ــ أى بعد عشرين يوما من تقديم مصطفى كامل لوحة سياسية مشهورة الى مجلس نواب فرنسا تصــور مصر راسفة فى الاغلال ، ويطلب فيها مساعدة مصر ــ تملك الحمــاس رجال الجيش المصرى بســواكن فى السودان ، فكتب اليه واحد وثلاثون منهم رسالة قالوا فيها :

« ان الذين يخاطبونك ، يجدون أنفسهم أمام وطنيتــك النادرة ، وتفانيك فى حب مصر المقدسة ــ صغارا ! . لأن قلمك الحق أمضى من سيوفنا ، وحججك القوية أفعل من رصاصنا . فاقبل شكرنا ، واعلم أن أرواحنا طوع اشارتك فى خدمة بلادنا العزيزة » .

وقد رد مصطفى كامل على هــذه الرســالة ينصح بعدم

تدخل الضباط فى السياسة ، ويقول : « من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا . وانى لا أود أن يدخل الضباط فى حركتنا السياسية دخولا ظاهرا ، لأن هذا يضر بالمسألة المصرية ضررا بليغا ، حيث يجد الاحتلال مسوغا لخلق التهم الثورية بمصر ، وغير ذلك مما لا يخفى عليكم » ! .

كذلك تحاشى مصطفى كامل وقوع تناقض بين الحركة الوطنية ، والخديو عباس ، حتى لا يعرض حركته للمصير الذى انتهت اليه الثورة العرابية بعد صدامها بالخديو توفيق ، حين لعبت الدسائس الانجليزية دورها فى اللعب على حبل هذا الصدام وتوسيع شقة الانقسام .

وقد ساعدت الظروف مصطفى كامل على أن يسلك هذه الخطة ، بسبب العلاقة الخاصة التى ربطته بالخديو عباس حلمى ، والتى تعد من أعظم العوامل التى كونت حياة مصطفى كامل السياسية فى فترة دراسته بمدرسة الحقوق .

وكان الخديو عباس حلمى قد تولى الخديوية يوم ٨ يناير ١٨٩٢ ، وهو اليوم التالى لوفاة والده الخديو توفيق ، وقد وصل من فينا الى القاهرة يوم ١٦ يناير ١٨٩٢ . ولما كانت مصر تابعة لتركيا فى ذلك الحين ، فكان من الضرورى صدور فرمان من السلطان العثمانى باسناد الخديوية اليه ، وقد صدر

هـذا الفرمان فى ٢٦ مـارس ١٨٩٢ ، وهو يقتطع من الأراضى المصرية شبه جزيرة سيناء بما فى ذلك العقبة ! ، مما أثار الخديو ، وأثار اعتراض الحكومة الانجليزيـة التى كانت تحتـل مصر بجيوشـها ، فتدخلت لدى الحـكومة العثمانية ، وأفلحت فى استصدار « ارادة سنية » باسناد ادارة شبه جزيرة سـيناء الى الخديو كما كانت لأسلافه ، فى ٨ أبريل ١٨٩٢ •

لهـذا السبب كانت العلاقـة بين الخديو عبـاس حلمى والانجليز علاقـة ودية فى العـام الأول من حـكمه ، وهـو عام ١٨٩٢ ، اذ كان الخديو فى حاجة لتأييد الانجليز له فى مسألة حدود مصر ، كما أن اللورد كرومر ، ممثل بريطـانيا فى مصر أرضاه بعدم تعيين مجلس وصاية عليه لعدم بلوغه سن الرشـد بالسنين الميلادية •

على أنه منذ أواخر عام ١٨٩٢ أخذت تتجمع العوامل التى حملت عباس حلمى على تغيير سياسته تجاه الانجليز ، من سياسة ود ومصالحة الى سياسة خصـومة وعداء • ففى ذلك الحين كان عباس حلمى يحس بأنه أمير دمية ! ، وأن سلطته سـلطة شـكلية . وأن السـلطة الفعلية فى يد الانجليز • وكان رئيس وزرائه مصطفى فهمى باشا يتعامل مع اللورد كرومر على أساس أنه ممثل السلطة الفعلية التى تستطيع فرض ارادتها على البلاد بحكم وجود جيش الاحتـلال ــ مما دعا الخديو عباس حلمى

الى اقالته فى ١٥ يناير ١٨٩٣ • على أن اللورد كرومر لم يلبث أن تدخـل سريعا ، فأبلغ عبـاس حلمى اعتراض الحكومة البريطانية على الاجراء الذى اتخذه ، وهدده بأنه اذا قاوم ارادته فسوف يجازف بسلطته وبشخصه ! • ثم سويت الأزمة بتعيين رياض باشا رئيسا للوزراء •

كان بسبب هذه الحادثة أن انقلب الخديو عبـاس حلمى الثانى على الانجليز • وكما فعل جده اسـماعيل من الاستعانة بالقوى الوطنية ، فكذلك فعل عباس حلمى • ولكن نظرا لتغير الظروف ، وعدم وجود حزب وطنى قوى ــ كما كان الحـال فى عهد اسماعيل ــ فقد عمد عباس الى الاستعانة سرا ببعض العناصر الوطنية القريبة الصلة فى القصر ، وفى الخـارج ببعض الشباب الذى يتوسم فيه القدرة على العمل السياسى • وفى هذه الظروف لعبت الصدفة دورها فى تعرفه على مصطفى كامل •

ففى نوفمبر ١٨٩٢ ــ أى قبل أزمة اقالة مصطفى فهمى باشا بشهرين ــ زار الخديو عباس حلمى مدرسة الحقوق الخديوية ، فكان مصطفى كامل على رأس الطلبـة الذين رحبوا به ، وألقى بين يديه قصيدة مطلعها :

بشرى الحقوق بسيد الأمراء

كنز العلا ، عبـاس ذو النعماء

بشراك يادار العــدالة والهدى

بمليك مصر وأوحد العظمـــاء

وقــد كان فى أعقاب هــذه الزيارة أن تم الاتصـــال بين عباس حلمى ومصطفى كامل ، عن طريق حسن باشا عاصــم ، رئيس ديوان الخديو ، وعبد الرحيم أحمد وكيل الادارة العربية بالمعية السنية ، لتنسيق العمل الوطنى . ولم يكد يمضى شــهر ونصف بعد الزيارة ، حتى كان مصطفى كامل يدعو رفاقه طلبة مدرسة الحقوق الى الاحتفال بعيد جلوس الخديو فى حديقــة الأزبكية يوم ٨ يناير ١٨٩٣ ، ولم يكن مثل هــذا الاحتفال معروفا من قبل ! .

وبعد عشرة أيام من هذا الاحتفال ، وبمناسبة الصـــدام بين الخديو عباس حلمى واللورد كرومر على اقالة مصطفى فهمى باشا ، نظم مصطفى كامل مظــاهرة من طلبــة الحقوق لتأييد الخديو ، توجهت الى عابدين مع وفود الأمة التى توجهت لهذا الغرض ! .

وأهمية هذه المظاهرة التى نظمها مصطفى كامل ، أنها تمثل بداية اشتراك الطلبة فى الحركة الوطنية بصفة فعالة ضد الاحتلال، وهى سمة ســوف تميز فيما بعد نضـــال مصطفى كامل والحزب الوطنى وتمهد لاشتراك الطلبة فى ثورة ١٩١٩ .

على كل حال ، اذا كان لقاء مصطفى كامل بالخديو عباس الثانى يعد أخطر الأحداث فى حياته السياسية فى فترة دراسته للحقوق ، فان لقاءه بأوروبا لا يقــل خطورة ، ليس فقط لمــا ترتب على هذا اللقاء من تأثير فى تكوين مصطفى كامل الثقافى والفكرى ، وانما لأن أوروبا كانت فى تلك الظروف التاريخية تمثل الميدان الرئيسى لكفاح مصطفى كامل ٠

ففى تلك الفترة التاريخية من حياة مصر ، كانت هنــاك ثلاثة عوامل تتحكم فى حرية مصر واستقلالها وتقرر مصيرها :

العامل الأول ، هو تبعيتها للدولة العثمانية ، بمعنى أن مصر كانت تقع تحت السيادة العثمانيــة ، على الرغم من أن انجلترا كانت تحتلها منذ ١١ يولية ١٨٨٢ ! ٠ ولكن تبعية مصر للسيادة العثمانية لم تكن مطلقة ، بل كان لها وضــع خاص واستقلال ذاتى ، حصلت عليه بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والفرمانات المؤكدة لهذه المعاهدة ، الى جانب الفرمانات التى صدرت فى عهد الخديو اسماعيل بشأن اختصاصات ومسئوليات الخديوية ٠

أما العامل الثانى فهو الصفة الدولية للمسألة المصرية منذ معاهدة لندن ١٨٤٠ ٠ لأنه بعد هــذه المعاهدة الدولية ، التى اشتركت فى ابرامها كل الدول الكبرى فى ذلك الوقت ــ لم يعد فى وسع أية دولة كبرى أن تغير وضع مصر السياسى الدولى ،

دون اتفاق مع بقية الدول التى وقعت المعاهدة • بل لا تستطيع الدولة العثمانية ذلك على الرغم من سيادتها على مصر ! •

أما العامل الثالث ، فهو الاحتلال البريطانى ، الذى مثل عند وقوعه خرقا واضحا وانتهاكا صريحا لمعاهدة لندن ١٨٤٠ ، بعد أن هيأ لدولة كبرى أن تحدث تغييرا فى وضع مصر السياسى الدولى دون موافقة بقية الدول الكبرى ! •

هذه العوامل الثلاثة هى التى حددت مجال العمل السياسى لمصطفى كامل ، وهو أوروبا • لأنه اذا كانت مصر قد غلبت على أمرها بالاحتلال البريطـانى ، فان المصلحة الوطنية كانت تقضى باستغلال التناقض الذى وقع بين مصالح الدول الأوروبية وبين انجلترا التى احتلت مصر ، والاستعانة بدول أوروبـا لاكراه انجلترا على الجلاء عن مصر •

ولمـا كانت فرنسا هى أكبر دولة منافسة لانجلترا فى ذلك العصر ، فقد كان لهذا السبب أن اتجه مصطفى كامل الى فرنسا يحرضها باسـم مصالحها ، وباسـم التوازن الدولى فى البحر المتوسط ، لاكراه انجلترا عن الجلاء عن مصر ! •

وكانت الظروف قد هيأت لمصطفى كامل الاحتكاك حضاريا بفرنسا عندما التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية كما ذكرنا • ذلك

أن امتحـان نهاية العام فى هـذه المدرسـة كان لابد أن يتم فى فرنسا . ولهـذا الغرض سافر مصطفى كامـل الى فرنسا يوم ٢٣ يونية ١٨٩٣ لأداء امتحان السنة الأولى . فأتاحت له هـذه الزيارة الفرصـة للاحتكاك بالحضارة الأوروبية ، والاتصـال بمصادر الثقافة ودور العلم ، وأتاحت له أكثر من ذلك الاختلاط بالشعوب الأوروبية وغيرها .

فيقول فى خطاب لأخيه على فهمى فى ٢٩ يولية ١٨٩٣ . « لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين ، فرأيتهم جميعا منكبين على العلم ، ولكنى أؤكد لك أن المصرى أقواهم عارضـة وأعـلاهم ذكاء ، ولا ينقصه الا الارادة التى هى أس النجـاح » .

كذلك تهيأ لمصطفى كامل الاتصال بالأساتذة والصحفيين الفرنسيين ، والدخول معهم فى مناقشات حول المسألة المصرية ، مما أفاده من النواحى العلمية والسياسية .

ولم يلبث مصطفى كامل أن عاد الى فرنسا فى صيف العام التالى ، سنة ١٨٩٤ ، ليؤدى امتحان السنة الثانية بنجـاح ، وانتهز الفرصة لزيارة بروكسل ، ثم عاد الى مصر فى سبتمبر من نفس السنة .

عاد مصطفى كامل الى مصر وهو يعتزم العودة الى باريس فى الشهر التالى مباشرة ليؤدى امتحان السنة الثالثة ، ويحصل

على الليسانس فى نوفمبر من نفس العام ، أى ليؤدى امتحانين فى عام واحـد ! • وهو أمر غير مفهوم ، ولا يفسره الا ذلك الاحساس الخفى الذى كان يبطنه مصطفى كامل بأن عمره قصير، وهو الذى جعله يضاعف دراسته للحقوق فى مدرسـة مصرية ومدرسة فرنسية معا ، فأراد أن يضاعف امتحانه فى عام واحد ويجتاز عامين دراسيين فى عام واحد ! •

على أنه لمـا كان نظام كلية الحقوق فى جامعـة باريس لا يسمح لمصطفى كامل بأداء امتحانين فى سنة واحدة ، فلذلك تقدم بمساعدة أساتذته الفرنسيين فى مصر ، الى جامعة تولوز ، التى قبلت أن يؤدى مصطفى كامل أمامها الامتحان النهـائى ، فنجح فيه ، وحصـل على ليسانس الحقوق فى نوفمبر ١٨٩٤ وله من العمر عشرون عاما •

وقد استرعى هذا العمل اهتمام صحف تولوز ، فكتبت جريدة « دى تولوز » خبرا مطولا عنه جاء فيـه : « بين الذين نجحوا فى كلية الحقوق عندنا ، شاب مصرى ، هو مصطفى كامل، ولم يكن مقيدا فى الكلية عند بدء الدراسـة ، بل هذه أول مرة يلتحق فيها بالكليـة • ومن يعلم أنه دخل امتحـان يولية المـاضى فى كلية الحقوق بجامعة باريس ، واجتازه بنجـاح باهر ــ فانه يدهش كثيرا لهـذا الذكاء النادر ! • ولا يسعنا الا أن نهنىء مصر به ، ونرجو له النجاح التام فى العمل الذى

يريد به خدمة بلاده • وان مدينـة تولوز لتفخر بأن تسجل فى عداد خريجيها شابا كهذا الشاب » ! •

على هذا النحو انتهى مصطفى كامل من دراسته القانونية بهذا الشكل المكثف الفريد ، ليتفرغ لخدمة بلاده التى وهبها حياته ، وهو ما عبر عنه فى خطـاب صريح لأخيه على فهمى فى ١٨ نوفمبر ١٨٩٤ ، حيث كتب يقول : « أصبحت حاملا شهادة الحقوق ! • ولو أتيح لى الخير ، وبلغت ما أتمنى ، كنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر ــ وهى جنة الدنيا ــ لا تستحق أن يداس شرفهـا بالأقدام ، ونصبح فيها ــ نحن أبناؤها الأعزاء ــ ممقوتين غرباء » ! •

وقد عاد مصطفى كامل الى مصر مزودا بصندوقين كبيرين مملوءين بالكتب فى تاريخ المسألة المصرية ، وأخذ يعكف عليهـا لدراستها ؛ كما يدرس المحـامى الناجح القضـية التى ينوى الترافع فيها ! •

وكان فى ذلك الحين قد انتقل الى منزل استأجرته عائلته خلف قسم المنشية بعمارة خليل أغا ، حيث وضـع لنفسه برنامجا صارما للعمل والدراسـة استعدادا لأعباء النضـال فى سبيل مصر •

وسرعان ما أخذت علاقات مصطفى كامل بالخديو عبـاس

الثانى تتطور فى خدمة المسألة المصرية • وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الصلة ، التى بدأت بعد زيارة الخديو عباس لمدرسة الحقوق الخديوية فى نوفمبر ١٨٩٢ ، ورأينا نشاط مصطفى كامل فى تجنيد طلبة المدارس لتأييد الخديو فى صراعه مع اللورد كرومر • وقد أثمر هذا التعاون رعاية من جانب الخديو عباس لمصطفى كامل فى دراسته • فعندما عزم على اتمام دراسته بأوروبا ، وسافر الى تولوز ، كان ذلك بتعضيد الخديو ، فقد تولى الخديو الانفاق على مصطفى كامل ، الى جانب أخيه من أبيه الدكتور عبد الفتاح فتحى ، كما جعل له راتبا شهريا ! •

وعندما عاد مصطفى كامل الى مصر فى ٦ ديسمبر ١٨٩٤ ، وأصبح متفرغا للنضال الوطنى ، أرسل اليه الخديو عباس عبد الرحيم أحمد ، الذى يعمل فى المعية الخديوية ، للاستعداد للسفر الى فرنسا للدعاية للقضية الوطنية ! • وكان عبد الرحيم أحمد هو همزة الوصل بين الخديو عباس ومصطفى كامل • وقد جرت اللقاءات فى احدى مقاهى باب الخلق ، حيث كان عبد الرحيم أحمد يخرج من الباب الخلفى لسراى عابدين ، لتفادى جواسيس اللورد كرومر ، لمقابلة مصطفى كامل وادخاله قصر عابدين •

فى ذلك الحين كان الخديو عباس الثانى يعتمد على فرنسا لحمل انجلترا على الجلاء عن مصر • ولهذا السبب قرب اليه

مجموعة من الفرنسيين كانت تلتف حول السكرتير العام فى القصر ، وهو فرنسى يدعى لويس روييه Louis Rouiller وتضم جافييو Gavillot زعيم الجالية الفرنسية فى مصر .

وعندما خطط الخديو للدعاية للقضية الوطنية فى فرنسا . أوكل لأحد أعضاء البرلمان الفرنسى ، وهو المسيو « فرانسوا دى لونكيل » ، مهمة الدفاع عن القضية الوطنية المصرية فى فرنسا . وكان « دى لونكيل » قد زار مصر فى مارس ١٨٩٥ لمقابلة الخديو سرا لهذا الغرض ، وقابله مصطفى كامل ، وألقى عدة خطب طعن فيها طعنا شديدا على السياسة البريطانية ، لاحراج الاحتلال البريطانى ، ثم سافر قاصدا فرنسا يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٥ .

وكانت الخطة أن يسافر مصطفى كامل الى فرنسا ليلحق بالمسيو دلونكل ، ويتعاون معه فى باريس ، وهو ما حدث بالفعل ، اذ سافر مصطفى كامل الى باريس فى أوائل الشهر التالى ، مايو ١٨٩٥ .

على أن الخلاف لم يلبث أن دب بين مصطفى كامل ، الذى كان عمره وقتذاك لا يتجاوز واحدا وعشرين عاما ، وبين النائب الفرنسى المحنك ! . ففى حين كان مصطفى كامل يرى أن يقود هو الدفاع عن قضية بلاده ، لأن ذلك أكثر تأثيرا على الرأى

العام الفرنسى والأوروبى ـ كان دلونكل يتخذ من المسـألة المصرية سبيلا لمجده الشخصى ! • وهـكذا أخذ دلونكل يثير المتاعب فى وجه مصطفى كامل ، ليس فقط فى الأوساط الفرنسية ، بل فى السراى فى مصر لدى الخديو عباس ! •

ومن سوء حظ مصطفى كامل أن الخديو عباس كان يولى « دلونكل » ثقة كبيرة ، ويعتمد عليه اعتمادا مطلقا فى التأثير على السياسة الفرنسية ، وكان سن مصطفى كامل الصغير يحمل الخديو على اتخـاذ جانب « دلونكل » ، ولهذا السبب عـانى مصطفى كامل معاناة شـديدة نلمسها فى خطاباته المؤثرة الى عبد الرحيم أحمد ، التى قصد بها أن تعرض على الخديو •

ففى خطابه يوم ٨ يونيو ١٨٩٥ ، وهو أشبه بتقرير شامل ، قصد به أن يعرض « على الأعتاب الشريفة بأول فرصة » ! ، أبلغ مصطفى كامل الخديو أنه قدم لوحة رمزية تمثل مصر ترسف فى قيود الاحتـلال ، وتستصرخ فرنسا لتعاونها فى التخلص من الاحتلال ـ الى رئيس مجلس النواب الفرنسى • وقال انه بعث أيضا لرئيس المجلس كتابا يدعو فيه المجلس لمساعدة مصر •

وقد أوضح مصطفى كامل تأثير هـذه اللوحة الرمزية فى الأوساط الفرنسية ، فقال ان « كل الجرائد تقريبا فى باريس والمدائن الأخرى نشرتها • فأحدث نشرها تأثيرا كبيرا بين القوم ،

واعتبر الكل هذا العمل استنجادا بفرنسا لابد أن تجيب عليه » .
وقال انه أرسل نسخا من هذه اللوحة لكل النواب وكل أعضاء مجلس الشيوخ وكل الوزراء ووكلاء الوزارات فى فرنسا وانجلترا ، وكل الجرائد ذات الشأن فى لندن وباريس والأقاليم الفرنسية وسان بطرسبورج « مما زاد العمل أهمية ، وجعل التأثير شاملا » .

وقال مصطفى كامل ان الجرائد مستعدة لخدمتنا أحسن خدمة ، وقد دعوت الكثير من أصحابها للعشاء معى ، ولاطفتهم حتى خلبت عقولهم بحسن الخطاب والاستقبال والاحترام ، وكلهم مائلون لمصر .

ثم أوضح مصطفى كامل أن الولائم تكلف مصاريف كثيرة. « الا أنى ، مع الحكمة فى صرفها ، أراها أنفع ما يصرف . ولايضاح الحقائق أقول لكم ان بعض الجرائد يطمع فى الدراهم!. وقد لمح لى بذلك بعض أصحاب الجرائد . ولكن ان قضت الظروف بشراء بعضها ، فانها تكون المهمة منها » .

ثم أخذ فى الشكوى من المسيو « دلونكل » ، فذكر أن الرجل ، رغم ماله بين اخوانه من منزلة ، ورغم ما يشهدون له بالنباهة والاستعداد وقوة الكتابة والخطابة ـ الا أن للرجل عيوبا كما له فضائل ، فمن عيوبه أنه خفيف جدا جدا ! . .

وأضاف ان خفته تضر بنا . « ومثال هذه الخفة أنه يذكر سمو العزيز (أى الخديو عباس الثانى) فى بعض الأحيان فى وسط جمع من أصحابه ، ويقول : « قال لى ! ، وقلت له ! » . وأيضا فى مسألة اللوحة ، أظهر لى من خفته ما لم أكن أنتظره من قبل ! . فلقد أخرنى كل هـذه المدة وهو يقول لى يوميا : « قدمهـا لرئيس الجمهورية ! » ، ويوما آخر : « ان رئيس الجمهوريـة لا يقبل هدايا الا من الملوك » ! . وفى الختام قـال : « قدمهـا اذا لمن تشاء » ! . فقدمتها للمجلس ! . والرجل يحب علو اسمه، ويسعى لذلك ، فتراه لا يسر مطلقا اذا رآنى تعارفت مع أحد ، لأنه يريد أن أكون طوع عينيه » .

ثم عرض مصطفى كامـل على عبد الرحيم أحمد خطتـه السياسية فى فرنسا ، ليعرضها بدوره على الخديو ، « حتى اذا رضى عنها من لا أغفل عن الدعـاء له بالدوام فى السفر وبلوغ الآمال ، سرت عليهـا . وان كانت هنـاك اشارة اتبعتها » .

وكانت نقاط هذه السياسة تتمثل فى الحملة الاعلامية ، التى رأى ان تقوم على نشر الأحاديث فى الصحف ، والقاء الخطب فى المنتديات ، ونشر الرسـائل المتوالية عن أهم الرسـائل المتعلقة بمصر ، والتعارف على الشخصيات المهمة ، « واهدائهم الهدايا ، ودعوتهم للولائم عند اللزوم » ، والقيـام بجولة دعائيـة فى ألمـانيا ، « أقدم فيهـا نسخة من هـذه الرسالة الى البرنس

بسمارك ، وأقابله وأسأله آراءه » ! • ثم القيام بجولة دعائية أخرى فى سان بطرسبورج فى روسيا • واصدار جريدة أسبوعية بالفرنسية والانجليزية عن مصر • وقد ذكر أنها تحتـاج وحدها الى ١٥٠٠ جنيه سنويا » •

واختتم خطابه قائلا : « فاعرضـوا نص كتابى هـذا على كعبة آمالى سيدى الأعلى (يقصد الخديو) وأرسلوا الى الرد حالا بأول فرصة • حتى أسير على هـذا البروجرام ، ولا يقف لى عمل • وفى الختام أكلفكم تقبيل الأعتاب الشريفة ، دام مجدها أبد الزمان » ! •

على أن الرد وصل الى مصطفى كامل من الخديو عن طريق عبد الرحيم أحمد مخيبا لآماله ، ومحذرا تحذيرا شـديدا من الخلاف مع « دلونكل » ! • وكان دلونكل بطبيعة الحـال قد سبق مصطفى كامل الى الشكوى منه ! • ولذلك جاء فى كتـاب عبد الرحيم أحمد اليه قوله : بلغنى أنه وصـل من الأخبـار قبل ورود جوابكم الأخـير ، أنه حصـل بينكم وبين المسيو « دلونكل » بعض خـلاف فى الرأى والاجراء ، فتـكدرنا ، ورجونا أن تكونوا دائما على وفاق ووئام معه • ولا أزيدكم علما بما ينتج عن الفشل والاختـلاف والتنازع ، فاجتهدوا أن يحسن هو الشهادة فى حقكم ! ، ويشير الى ذلك فى محرراته التى سيرسلها ! • لأن تلك الأخبار أثرت تأثيرا سيئا • فالنصيحة

الصادقة المخلصة من أخيكم وصديقكم أن تبادروا بالحصول على تمام الاتفاق مع مسيو « دلونكل » ، حتى يرد منه ما يمحو كل ما خالج الصدور ! • لابد من الاسترشاد بمسيو « دلونكل » ، والرضا بأن يكون له الفضل فى ذلك ، وأن يكون هو السبب فى التعارف وغيره • أما السياحة فى ألمانيا ومقابلة البرنس بسمارك ، فانها تكون مهمة لو وجدتم من يصحبكم فيها من اخوانكم المصريين لتكونوا وفدا ! • وكذلك الشأن فى سياحة « سان بطرسبورج » •

على هذا النحو وضع الخديو عباس الثانى مصطفى كامل تحت الوصاية المطلقة للمسيو « دلونكل » ! • وكان على مصطفى كامل أن يقبل هذا الوضع أو يرفض ، ولكن حبه لبلاده ، وشدة ايمانه بالخديو عباس ، دفعاه الى القبول • ففى خطابه الى عبد الرحيم أحمد فى ٢٧ يونيو ١٨٩٥ ، قال انه حين تحدث عن المسيو « دلونكل » كان يقول الصدق ، « اذ أن مثلى لا يصح أن يكذب على مولاه ، أو يغير له اعتقادا يعتقده »• ولكن طالما أن الخديو يريد أن تكون العلاقة بينى وبين المسيو دلونكل على هذا النحو ، « فثقوا بأن العلائق بيننا على غاية ما يرام ، وأنى أستشيره فى كل الأمور ولا أخالف رأيه ، خصوصا وأن رضاء مولاى ربما تغير بتغير العلائق بيننا ! • ورضاء مولاى ــ كما تعلمون ــ منتهى رغبتى • فلو أمرنى ــ

أعز الله شأنه ــ بأن أذبح خدمة لبلادى ولشخصه الجليل : لما تأخرت . وأكرر لكم أنى لا أسأل سيدى الأعلى ومولاى شيئا غير رضائه عنى . فلو علمت بأقل تغيير فى ثقته بى ورضائه عنى لاختفيت من على سطح الأرض ، دون أن يعلم لى شأن » !.

ثم قال مصطفى كامل تلك العبارة المؤثرة التى تبين دوافعه فى قبول هذا الوضع ، فقال : « وانى ، على شرف نفسى ، أعتبر أن خدمة الأوطان تحتاج لكثير من التعب وتحمل المصاعب وملاقاة المشاق . فلا بأس بتحمل مر الكلام وغيره خدمة لمصر المحبوبة وأميرى العزيز ــ أعزه الله وحقق له الآمال ــ فلست أقل وطنية من الذين قدموا أنفسهم ضحية لبلادهم » ! .

على أن المتاعب ــ مع ذلك ــ لم تترك مصطفى كامل ، فى تلك التجربة الفريدة ، يخدم بلاده كما يريد . فمن ناحية فان الرجل « دلونكل » شق عليه أن يهزمه ويسرق الأضواء منه شاب صغير لا يتجاوز الواحدة والعشرين من عمره ، خصوصا بعد أن ألقى مصطفى كامل أول خطبة سياسية له فى أوروبا فى يولية ١٨٩٥ فى مدرج كلية الآداب فى جامعة تولوز ، وقوبلت هذه الخطبة بنجاح ساحق . فقد أخذ دلونكل يدس لمصطفى كامل ، ويبذل مساعيه لاعادته الى مصر ! .

وهذا ما أثار مصطفى كامل اثارة شديدة . ففى خطابه لعبد الرحيم أحمد يوم ٤ أغسطس ١٨٩٥ قال متوجعا :

« وآسفاه عليك يا مصر التعيسة ! . وآسفاه على فتاك الذى تغرب عنك لاسعافك ونصرتك ، معتمدا على كل من فى قلبه ذرة من الوطنيـــة ، فاذا ما وصل هـــذه الديار ، وابتدأ فى خدمة الأوطان ، قامت هذه الخصوم وبعض الأحباء ، ودست له الدسائس ! . أى وطنى يوافق على رجوعى بعد أن صرت للانجليز العدو الألد ، والخصم الأشـــد ؟ . وأى يأس يستولى على المصريين الذين لا يعلمون يومئذ حقيقة سبب رجوعى » ! .

ويتضح من خطابات مصطفى كامل أنه وقع فى تلك الفترة تحت اعتقادين : الاعتقاد الأول ، أنه قد كرس حياته تماما لمصر ، وتخصص فى الدفاع عن قضية مصر ، وأن هذا التخصص سوف يغلق فى وجهه باب الدفاع فى قضايا الأفراد ، لأن الأفراد سوف يتجنبون اللجوء اليه للدفـــاع عنهم خوفا من سريان محـــاربة الانجليز له اليهم ! .

ففى خطابه الى عبد الرحيم أحمد يوم ٣١ أغسطس ، الذى يهاجم فيه فكرة اعادته الى مصر قال : « اذا عدت الى مصر ، ففى أى المحاكم أترافع ؟ ، وأمام من ؟ . من من المصريين يكلفنى بالدفاع عنه ، مع علم الناس كافة أن للسياســـة على القضـــاء تأثيرا عظيما ؟ . أتعرف ماذا يكون شأنى اذا عدت ؟ . يكون شأن محام كلف بالمرافعة فى قضـــية ، فجاء الى المحـــكمة ووضـــع محفظته أمام القضاة ، ثم خرج وعاد من حيث أتى . اننى ذلك

المحامى الذى لا يريد أن يضحك القوم عليه . وخير لى أن أموت وأقبر فى مجدى الوطنى عن أن أعود الى مصر فى زمن الاحتلال » ! .

أما الاعتقاد الثانى ، فهو أنه سوف يبقى فى أوروبا حتى يتحقق جلاء الانجليز عن مصر ! . فلم يكن مصطفى كامل يتصور فى ذلك الحين أن الاحتلال البريطانى سوف يدوم أربعة وسبعين عاما ! ، لأن شبابه وآماله الوطنية وخبرته المحدودة بالشئون الدولية ؛ جعلته يقع فى وهم أن الاحتلال البريطانى يمكن — مع تركيز وتكثيف الحملة الدعائية ضد بريطانيا — أن يزول فى أمد وجيز ! .

ففى خطابه لعبد الرحيم أحمد يوم ٨ يونيو ١٨٩٥ قال : « أملى ألا يدوم الاحتلال الانكليزى زيادة عن ١٦ شهرا ! ، وهو أجل أضربه ، وان كنت ممن لا يحب ضرب الآجال . ولكن الحوادث تنبىء أن : من هنا الى ١٦ شهرا يتم كل أمر حسن ان شاء الله » ! .

وعلى ذلك فقد دافع مصطفى كامل عن بقائه فى أوروبا دفاع المستميت . بينما كان يدور فى السراى صراع عنيف بين مؤيدى عودته ومؤيدى بقائه ! . وكان الفريق المؤيد لعودته يتكون من الفرنسيين فى القصر ، الذين وقفوا بطبيعة الحال الى جانب

« المسيو دلونكل » ، وكانوا يستخفون بمصطفى كامل وما يمكن أن يؤديه ! • كما كان الى جانب هؤلاء الفرنسيين بعض المصريين، مثل يوسف صديق بك ، وكان قاضيا فى المحاكم المختلطة ، ومعاديا للاحتلال ، ولكنه لم يثق كثيرا فى مصطفى كامل •

وهذه المجموعة كانت تعيب على مصطفى كامل فرديته ، وعدم ايمانه بالعمل الجماعى ، وفرط ثقته بنفسه ، ومبالغته فى وصف تأثير أعماله فى الرأى العام الأوروبى ، وتخشى أن يترتب على ذلك آثار ضارة بالعمل من أجل القضية المصرية • ولم تكن تخفى رأيها عن مصطفى كامل ، ففى خطابه الى عبد الرحيم أحمد يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٩٥ قال له :

« انظر الى أخينا يوسف بك صديق وما يعمله معى ! • يرسل لى وللهلباوى بك كتابات مظلمة مكدرة للغاية ، كلها سب فى وطعن على ! • وأنا لم أرض الرد عليه ، لأننى متألم جدا منها ، وربما دفعنى كدرى الى ما يكدره ، وأنا لا أحب ذلك • فهل جزائى على خدمتى لبلادى أن أسب ؟ ، وأن يقول ان أعمالى كلها ضرر فى ضرر على مصر وأميرها ؟ • وليت هذا الفكر فكره ، بل انه رأى الافرنج المتسلطين كما يعلم كل عاقل ! (يقصد مجموعة القصر ودلونكل) ! •

ثم يهاجم هذه المجموعة الفرنسية قائلا : « ان الفرنساويين

مهما تظاهروا لنا بالولاء ، هم كالانكليز يعملون لمنفعتهم . وهم اذا تقربنا منهم وتحببنا اليهم ، فانما هى سياسة منا قضت بها الأيام ، نستعملها لاستخدامهم ولتغيير عداوتهم بالحب والولاء ، وان يكن وقتيا . فاذا رأى كاتب أو نائب من الفرنساويين (يقصد دلونكل) أنى أكتب وأخطب وأؤلف لمصر ، وكان هو من المشتغلين بالمسألة ، الموكلين شهرة أو صيتا ، طار الشرر من عينيه ، وكتب ليوسف صديق مستخفا به وبعقله ، قائلا له : ان مصطفى كامل يضر ! . فيقوم عندئذ يوسف فى الحال ويكتب ما يكتب ، ويقول ما يقول . فهل بلغت البساطة منا أن يعتقد بعضنا (على سلامة النية) أن الفرنساوية اذا تكلموا عن مصر يكون لكلامهم وقع فى نفوس السامعين ، مثلما يتكلم عنها واحد من أبنائها ؟ . ان الفرق جلى بين خدمة المصرى لمصر والفرنساوى لها . فالفرنساوى يدافع عن حقوق فرنسا فى مصر ، وأما المصرى فيدافع عن مصر نفسها » .

على أنه فى مقابل هذه المجموعة التى كانت تحارب مصطفى كامل وتدعو لعودته ، كانت هناك مجموعة أخرى تؤيده وتدافع عنه ، ولكن بشروط . وكان على رأس هذه المجموعة عبد الرحيم أحمد ، الذى كتب الى مصطفى كامل يبدى تقديره لما يقوم به من مناوأة الاحتلال فى الخارج ، ويقول له : « لقد قمت مقاما أحجم عنه كل مصرى ، وطالبت واستنهضت

الهمم » ، ولكن « هلا طرحت التفاخر جانبا ، واشتغلت فى ظل الغير ، حتى تجد من اخوانك من يقتدى بك ، فتقوموا جميعا مطالبين ، ويكون صوتكم حينئذ مسموعا ، واستغاثتكم مجابة ؟ . ربما قلت لى انه يلزم أن يكون المطالب مصريا ! . نعم ، ولكن لا يلزم أن يرفع صوته اذا كان وحيدا ، فيد الله مع الجماعة » .

وواضح أن فرط ثقة مصطفى كامل بنفسه فى ذلك الحين كانت تقنعه بقدرته على انجاز كل شىء ! ، بينما كان القصر بفريقيه ، المؤيد والمعارض لمصطفى كامل ، يؤمن بضرورة العمل الجماعى ، الذى يشترك فيه المصرى والفرنسى ، ولا ينفرد فيه مصطفى كامل بالعمل ، بل يسعى لاشراك مصريين آخرين فيه ، ولذلك حين عرض مصطفى كامل الذهاب الى ألمانيا ، ومقابلة البرنس بسمارك ، وافق القصر بشرط ألا يكون مصطفى كامل وحده ، بل يكون فى وفد مصرى . ولذلك كتب اليه عبد الرحيم يقول ان هذه الزيارة « تكون مهمة لو وجدتم من يصحبكم فيها من اخوانكم المصريين ، لتكونوا وفدا » . ولكن مصطفى كامل رد بأن خطبته فى ٤ يولية « برهنت للناس كافة أن لهذا العاجز من التروى والحكمة ، ولو أنه فى أزهر الشباب — ما يكفيه للقيام بهذه المهمة الجليلة ، بدون احتياج لأمر زيد أو بكر » ! . فأثبت تمسكه بالعمل الفردى .

وقد تمثلت خطورة رغبة مصطفى كامل فى الانفراد بالعمل، فى نفور المصريين فى أوروبا منه ، وتقولهم عليه عند عودتهم الى مصر ! • ففى خطاب عبد الرحيم أحمد اليه قال : « حضر السواح الذين كانوا بالبلاد الغربيــة ، وتفننوا فى أساليب الأخبــار ، وبالغوا ، وأقسموا بأنهم شاهدوا وسمعوا وعلموا وقرءوا فى الجرائد ــ قصــدا سيئا وغرضــا ذميما وأفكارا سافلة ! ــ وبعضهم شهد ضد ما قالوا ، ولكن ويالالأسف ، قليل ما هم ! •

وقد شعر مصطفى كامل بهذا الانصراف من جانب المصريين فى أوروبا عنه ، وبدلا من أن يدفعه ذلك الى التخفيف من فرديته، التى كان مدفوعا فيها بتطلع مشروع للزعامة ــ فانه عزز رأيه وموقفه فى الاستئثار بالعمل الوطنى وحصره فى شخصــه • ففى خطابه لصديقه فؤاد سليم حجازى فى يوم ١٦ يونية ١٨٩٥ ، قال له بصراحة تامة • « انى لا أستطيع الاعتماد على أحد من أبناء جنسى • وانى اذا صودرت (أى منعت من العمل) يوما بأى صورة كانت ، لا أجد من أمتى عضدا أو نصيرا ! • وهــذا ما يحزننى كثيرا ، فانى ، مع ارتياحى للمهمة التى عرضت نفسى للقيام بها ، والغرض الشريف السامى الذى أعمل له ــ أرى أن غيرى من الذين أحب التشبه بهم « كفرانكلين » (يقصــد الزعيم الأمريكى الذى أعلن اســتقلال أمريكا فى ٤ يوليــة ١٧٧٦) وغيره ــ كان بعمل ووراءه أمة تعزز مطالبــه ، وتدافع عنه ، بعــكس ما أنــا فيه ! • فالذين يقصــدوننى ويوافقون على

أعمالى ، انما يقولون بذلك فى مجالسهم الخاصة ، وربما خافوا المجاهرة به فى المجالس العامة ، والذين يعترضون على ويطعنون بى ، يقولون ذلك جهارا ، فهم لم يتركوا لفظا من ألفاظ القباحة والسفاهـة الا ذكروه ، ولم يفوتوا صفة من صـفات النقائص الا نسبوها لشخصى • كل ذلك ولا مدافع عنى • فكأنى بقومى وهم ساخطون على ناقمون منى » ! •

ونلاحظ أن هذا الخطاب قد كتب بعد شهر واحد فقط من سفره الى فرنسا لأداء مهمته ! • ولم يكن قد أنجز فى ذلك الحين من الأعمال ما يستحق عليه أية زعامة ! ، اذ لم يفعل غير تقديم اللوحة الرمزية لمجلس النواب الفرنسى ! •

وهذا يوضح الأزمة النفسية التى وقع فيها مصطفى كامل فى ذلك الحين ، بين احساسه بالزعامة من جهة ، واحساسـه بأنه لا يلقى التقدير الكافى فى الأمة التى ينتمى اليها من جهـة أخرى ! • ولم يستطع أن يدرك أن الأمة لا تدين بالزعامة الا لمن يستحقها ، وكانت حصيلة مصطفى كامل من الانجـازات الوطنية فى ذلك الحين تساوى صفرا بالنسبة لمـا أنجزه فيما بعد •

وهذا ــ على كل حال ــ هو السبب فى الخطـأ الفادح الذى وقع فيه مصطفى كامل فى تلك المرحلة المبكرة جدا من كفاحـه ، حين تصـور أنه لا يلقى ما يستحق من معاضـدة

الأمــة ! ، فكتب الى صـــديقه فـؤاد سـليم حجـازى فى ٢٩ آغسطس ١٨٩٥ يقول : « دعنى بالله عليك من هــذه الأمة التى بلانى الله بأن أكون واحدا من أبنائها » ! • ـ ذلك أن الأمــة المصرية لم تبخل على مصطفى كامل فيما بعد بالتأييــد والحب ،حين أثبت فى نضاله أنه يستحق هــذا التأييد والحب ، وتخلى عن فرديته ، واتجه الى العمل الجماعى ، الذى توجه فى عام ١٩٠٧ بتأليف الحزب الوطنى •

على كل حــال ، فقد ترتب على هــذه الظروف المعقدة بالنسبة لمصطفى كامل فى أوروبا ، وحيرة الخديو عباس فيما ينبغى أن يتخذه من موقف ازاء مصطفى كامل ــ أن توقف عن ارسال النقود اليه فى باريس ، أملا فى حمنه على العودة ، دون آن يطلب منه العودة صراحة ! ــ الأمر الذى أهاج مصطفى كامل ، وسبب له متاعب كثيرة ، لأن الحملة الدعائية التى كان يقوم بها ، فضلا عن نفقاته فى أوروبا ، كانت تتطلب كثيرا من الأموال • لذلك لم يكف مصطفى كامل فى كل خطاب أرسله لعبد الرحيم أحمد عن الاستصراخ طلبا للمال ! •

ففى خطابه يوم ٣٠ يولية ١٨٩٥ ، نبه عبد الرحيم أحمــد بقوله : « يلزمنى أن أخبركم أن ما لدى من المصاريف لا يكفينى الا لغاية سبتمبر • ولعلكم تعذرونى على صرف ما صرف ، فان كل شىء كان فى محله • ومن مركزه مركزى لابد له من الصرف

الكثير . على أنى أستعمل الاعتدال دائما ، وأخاف أن ينسب الى تبذير . فأرجوكم اخبار مولاى بذلك عند عودته ؛ وفيدونى عن رأيكم بهذا الخصوص .

وفى خطابه يوم ٤ أغسطس — أى بعد خمسة أيام — كتب الى عبد الرحيم أحمد يقول : « أخبرتكم فى خطابى الذى أرسلته من فيينا أن ما لدى من النقود لا يكفينى الا لآخر سبتمبر . ولعلكم لا تستغربوا من ذلك ، وأنتم تعلمون أنى أصرف كثيرا جدا فى الولائم الخصوصية والهدايا ، وهما العاملان الوحيدان فى جلب الكتاب الينا . فيدونى عن رأيكم الخاص فى مسألة مصاريفى » .

ويبدو أن عبد الرحيم أحمد كتب اليه عن استعداد بعض الأغنياء للتبرع ، فقد رد عليه مصطفى كامل مرحبا بقوله : « يسرنى كثيرا ما قلته لى من أن بعض الناس مستعد للمساعدة المادية . فياحبذا لو قام أفراد الأغنياء بالمساعدة ، وخففوا عن مولانا — أعزه الله — ما يصرفه من المصاريف الطائلة ، التى ستثمر قريبا ان شاء الله تعالى » .

وفى ١٥ أغسطس ١٨٩٥ كتب الى عبد الرحيم أحمد يقول : « لا يخفاكم أن المال هو أساس الأعمال . وأنت وحدك تعلم أن المبلغ الذى سلمته لى لا يكفى الا لهذه المدة ، وما كان من

الأعمـــال وما يكون فى هــذا الشـــهر والشهر الآتى ، ففدنى وساعدنى » ! • ثم ألحق هــذا الخطــاب بخطــاب آخر يوم ٢٣ أغسطس قال فيه « انى فى حاجة الى المــادة كما أسلفت لك ذكر • ويخجلنى تكراره » •

وفى يوم ٣١ أغسطس ١٨٩٥ كتب الى عبد الرحيم أحمد يقول : « انى شاعر كل الشعور بخطارة (خطورة)المهمــة التى أخذتها على عاتقى ، والتى كنت أحلم بها فى مصر قبل اســتلام زمامها ، وأتمناها آناء الليل وأطراف النهار ، والتى نلتها والفضل عائد على سيدى الأعلى ، الذى أولانى أشرف الشرف ، حيث جعلنى محل ثقته فى مثل هــذا المشروع الجليل » • ثم يقول : « انت لم تكلمنى عن شىء أخبرتك عنه ، وقلت لك : ان المــادة على وشك الانتهاء » •

وفى ١٤ سبتمبر ١٨٩٥ كتب الى عبد الرحيم أحمد يلح عليه فى هــذا الصدد ، ويقول : « أرجوكم ألا تقصروا فى ابلاغ مولاى وولى نعمتى أن ما لدى من المــادة نفد ، ويلزم ارسال ما يأمر به المولى حالا ، حتى لا أبيت فى بلبال بهذا الخصوص »•

ثم ألحق هذا الخطاب بخطاب آخر يوم ١٨ سبتمبر ، قال فيه : « لعلكم تكونوا بلغتم السيد العزيز (الخديو) أن المــادة نفذت كلها ، وانى فى حاجة الى غيرها • وعسى الأمر يكون قد صدر لكم وأجريتم اللازم • فيدونا على أى حال » •

على أن الخديو عباس الثانى صم أذنيه عن سماع هـذه النداءات ، على أمل أن ييأس مصطفى كامل ، ويعود الى مصر! . فقد كان قصارى ما وعد عبد الرحيم أحمد مصطفى كامل به ، هو اقناع الخديو بأن يرسل له ما يكفى نفقاته لا غير ! . أو على حد قوله : « أكتب اليك هذا ، وأنا مؤمل أن أتحصل على مطلق شيء . ولوما يقوم بمعيشتك لا غير ، حتى تستتب الأمور ! » .

وفى الوقت نفسه أعفى الخديو مصطفى كامل من مهمته ! وهو أمر طبيعى طالما أنه كف عن ارسال الأموال اليه ! . وكان الحل الوسط الذى توصل اليه عبد الرحيم أحمد مع الخديو أن يكف مصطفى كامل عن العمل باسم الخديو ، ويبقى فى باريس كما يشاء تحت أية صفة أخرى كأن يكون طالبا ! .

فقد كتب اليه يقول « أرى ، وربما وافقتنى على هذا الرأى ، أن تشيع أنك تريد تحصيل شهادة الدكتوراه فى علم الحقوق ، أو شهادة من مدرسة العلوم السياسية ، لتدفع بذلك ما تجاسر بعض الناس على النصح به من عودتك والاكتفاء بما سبق ! . فالأولى أن تقف الآن لحظة ترتقب الفرصة ، وتظهر أنك تشتغل بتحصيل العلوم .. والمظنون أن أصل الى تعيين مبلغ يرسل اليك شهريا ، يقوم بمعاشك مؤقتا ، حتى

تلوح الفرصـــة ، ويتمكن أخوك من اجراء ما يلزم لعود الأمور الى ما كانت عليه » •

وواضح أن هناك أسباب أخرى ، دعت الخديو عبـــاس لاتخاذ هـــذا الموقف • أولها ، تحرك السلطات الانجليزية فى مصر لمضايقة الخديو ، بسبب الدعاية التى يقودها فى الخـــارج ضد بريطانيا من خلال وكلائه الفرنسيين ومصطفى كامل • ففى خطاب عبد الرحيم أحمد السالف الذكر الى مصطفى كامل كتب يقول : « بدأت المناورات العدائية هنا ، فجردوا عساكر البوليس من السلاح والخرطوش ، أما الجيش فهو مجرد منها من زمن بعيد ! ، ولحقت بهذه الديار تهديدات ثورة الأرمن وخلافها ، والظاهر أنهم يريدون بنا سوءا » ! •

أما السبب الثانى ، فلعله خوف عباس الثانى من الزعـــامة التى يسعى اليها مصطفى كامل ! • لأنها اذا تحققت ، فســـوف تكون زعامة شعبية تكسف زعامته الملكية ، وتوقعه فى نفس المـــأزق الذى وقع فيه والده فى أثناء زعامة عرابى ! • ويصبح كالمستجير من الرمضـــاء بالنار ! • ولا ننسى أن كلا من عباس حلمى ومصطفى كامل كانا فى عمر واحد ، فكلاهمـــا ولد فى عـــام ١٨٧٤ ، وكلاهمـــا يحركه طموح شخصى يختلط بعمله الوطنى ! •

على أن مصطفى كامل رفض الدخول فى القمقم الذى أخرجه منه عباس الثانى ! . واذا كان الخديو عباس قد منع عنه المال ، فقد أخذ مصطفى كامل بطلبه من جهات وطنية صديقة أخرى لم تبخل بدفعه .

وهذا ما تكشفه خطابات مصطفى كامل لصديقه فؤاد سليم الحجازى . فقد أرسل اليه يطلب منه أن يرسل اليه بعض المال . وفى يوم ١٦ أكتوبر ١٨٩٥ كتب اليه نافد الصبر يستعجله فى ارسال المال بقوله : « انى مندهش جدا حيث أنه لم يصلنى منك لا برقية ولا نقود » ! . ثم أعلن اليه أنه فقد ثقته فى الخديو قائلا : « اننى حاليا يائس من واحد ، هو الخديو ! . ان مقدار ما بعثه لى يكفى فقط لأسدد نفقات الفندق » ! . ثم أبلغ مصطفى كامل صديقه بقراره عدم العودة الى مصر : « اننى صممت على عدم رجوعى الى مصر ، لأن وجودى فى فرنسا مهم جدا للقضية التى كرست لها نفسى جسدا وروحا . لقد قررت الا أعود الى مصر الا اذا يئست من معاونة الوطنيين » .

ثم سأل مصطفى كامل صديقه فؤاد سليم قائلا : « أليس فى استطاعة والدك والهلباوى ومحمود سالم ، أن يرسلوا لى سنويا ٤٠٠ جنيه ، ما داموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرون جهودى الوطنية ؟ . واذا كانوا غير قادرين على مساعدتى ، فانى

سأعود الى مصر يائسا فاقد الأمـل ، ليس من أجل الجـلاء فحسب ، بل من أجل مستقبل الأمة المصرية . بلغ والدك أنى ، باسم الوطن المقدس ، وليس باسم الصداقة ـ ألتمس منه هو وحده أن يرسل لى مبلغ ١٥٠ جنيها هـذا الشهر ، لهذه السنة كلها ، ولن أطلب منه شيئا بعد ذلك . وفى السنة المقبلة سـوف أدبر أمرى ، فوالدك يدفع ١٥٠ جنيها ، والهلباوى ١٥٠ جنيها ، ومحمود سالم ١٠٠ جنيه . ان ٤٠٠ جنيه من هؤلاء الوطنيين الثلاثة ستكون لها قيمة كبيرة عندى أكبر من نقود عباس » .

على أن فؤاد سليم رد عليه بأن أنصار الاحتلال استطاعوا أن يخمدوا صوت الشعب « مما لا يرجى منه أية مساعدة له » !. وقد رد عليه مصطفى كامل غاضبا : « تقول انه لا يوجد فى مصر شعب جرىء قادر على مساندتى ! . ولكن أيها البائس ، ان والدك وأصدقاءه هم جزء من هـذا الشعب ! . كفاك هزلا ، انى أرى أنكم وطنيون عندما يكون الخديو وطنيا ، ولستم وطنيين عندما يكون العكس ! .انى لن أغادر أوروبا ، لا فى خلال هذا الشهر ، ولا فى الشهر القادم ، وانى أنوى الاقامة فيها » ! .

على أن الخديو حين رأى أن امتناعه عن ارسال المـال الى مصطفى كامل لم يجبره على العودة ، أرسل اليه أمرا صريحا على يد « جافيو » بالعودة ! . ولكن مصطفى تمرد على هـذا الأمر، وبقى الى نهاية العام ! .

على أن مهمته كانت قد أصبحت مشلولة بالفعل • فالعمل الاعلامى يحتـاج الى أموال وسفر واقامة مآدب وحفـلات ، وهو ما عبر عنه مصطفى كامل بقوله : « المـال هو أسـاس الأعمال » ! • وكان ما يرسله له الخديو يكفى بالكاد لسداد نفقات الفندق فقط ! • وبذلك تضاءل عمل مصطفى كامل فى أوروبا ، وزال عنه بريق المـآدب والحفلات ، كما لم يعد يملك ما يدفعه من مرتب للسكرتير الذى اتخذه ، والذى كان يتقاضى شهريا مائتى فرنك ! • وانتهى تقريبا كل نشاط مصطفى كامل لمدة ثلاثة أشـهر (من سبتمبر الى ديسمبر ١٨٩٥) ، فيما عدا خطبة ألقاها فى الجمعية الجغرافية بباريس يوم ١١ ديسمبر • وان كان قد كسب فى تلك الفترة التعرف على مدام جولييت آدم ، الكاتبة الفرنسية المشهورة التى كانت تبلغ الستين عاما ، وكسب تعضيدها للقضية المصرية •

وهكذا اضطر مصطفى كامـل الى العودة الى مصر فى ٩ يناير ١٨٩٦ ، بعد أن أثار انتباه بعض جوانب الرأى العـام فى بعض البلاد الأوربية الى المسألة المصرية التى كانت قد أخذت تنزوى فى ركن مظلم بعد الاحتـلال • فبالاضافة الى أحاديثه فى الصحف الفرنسية ، وخطبته فى كلية الآداب بجامعة تولوز ، والجمعية الجغرافية بباريس ، واتصالاته ــ فقد نشر كتابا باللغة الفرنسية بعنوان « أخطار الاحتلال البريطانى » ، أوضح فيه

بذكاء أن بقاء الاحتلال البريطـانى لمصر لا يهدد مصالح مصر وحدها ، بل يهدد المصالح الأوروبية فى أوروبا وفى مستعمراتها الافريقية باخلال التوازن فى البحر المتوسط ، وسيطرة انجلترا على قنـاة السويس • وبطبيعة الحال فان مصطفى كامل لم ينبه أوروبا الى خطر تجهله ، وانما كان يناشـدها باسم الأخطـار المشتركة مساعدة مصر على طرد الاحتلال •

وقد كانت المشكلة التى واجهها مصطفى كامل بعد عودته الى مصر هى علاقته بالخديو عباس ، التى تأثرت بكل ما حدث فى خلال الأشهر التى قضاها فى باريس وتمرده على العودة •

وقد أخذ مصطفى كامل على الفور فى محـاولة حل هذه المشكلة • فلم يكد يصـل الى مصر ، حتى كتب الى الخديو خطابا مباشرا فى يوم ١٦ يناير ١٨٩٦ (أى بعد أسبوع واحد من عودته) قصد به ــ على حد قوله : « شرح الأسباب التى أخرت حضـورى من شهر أكتوبر الى الآن ، عسانى أستعيد ثقة سموكم ، التى تريد فئة من أدعياء الوطنيـة سلبها منى ، وما هى عاملة الا ضد الوطن نفسه » •

وفى هذا الخطاب تذرع مصطفى كامل ــ بذكاء ــ فى رفضه العودة الى مصر ، بمصلحة الخديو عبـاس نفسـه ! • فقـال : « ما وصلنى نبأ الأمر الكريم بالعودة الى الأوطان ، الا وشعرت

بأنه مسبب عن تهديد انكليزى ! • فرأيت من الحكمة أن أؤخر عودتى ، صيانة لكرامة سموكم ، اذ أنى اذا كنت عدت حينذاك، كان تحقق الانكليز من أنى مرسل فى أوروبا من قبل جنابكم »!• ثم وصف خصـــومه من رجال الخديو بأنهم « أشـــد بلاء على مصر من الانكليز أنفسهم » ! •

على أن الخديو لم يرد على مصطفى كامل ! • مما دفعه الى الكتابة الى عبد الرحيم أحمد فى ٢٥ يناير ١٨٩٦ يطلب اليه أن يحدد له « مقابلة مخصوصة » مع الخديو « أنفى فيها عن نفسى ما نسبه ذوو الأغراض لى ، ولكى أعلم اذا كان ســموه لايريد نهائيا مساعدتى فى خدمة بلادى ، حتى يتيسر لى عندئذ أن أعمل ما أريد فى مصر ، أو خارجا عنها ، عاجلا أو آجلا » !•

وعندما استمر الخديو فى تجاهل مصطفى كامل ، كتب الى عبد الرحيم أحمد خطابا مرة أخرى فى ١١ فبراير ١٨٩٦ ، هدد فيه بأنه اذا لم يحدد له الخديو مقابلة « هـــذا الأسبوع ، فانى أحمـــل كل هـــذا التأخير على عدم حاجتكم الى خدمـــاتى ، وأظنكم لا تلومونني اذا عملت من أول الأســبوع الآتى بغير استئذانكم أو انتظار تبليغاتكم » ! •

ثم ألقى مصطفى كامل بقنبلة يوم ١٩ فبراير حين كتب الى عبد الرحيم أحمد خطابا أعلن فيه ــ حسب قوله ــ « أنى عزمت

عزما نهائيـا على مبارحة الوطن المحبوب الأسـبوع القادم •
وأرجوكم أن ترفعوا ذلك النبأ الى مولاى أعزه الله • وما يحملنى
على تعجيل السفر غير اعراض الأمير الجليـل عنى • فلقد مضى
على فى مصر أربعون يوما وأنـا أنتظر الأمر العالى بتشرفى بمقابلة
العزيز حفظه الله ، والى الآن لم يتكرم بهذه المنحة لأعرض له
صدقى لجنابه وخيانة غيرى الخيانة العليمة • وعلى أى حال فانى
مبارح الأوطـان غير نادم على ما كان ، بل متخذا كل ما رأيتـه
وعلمته دروسا لى أستفيد منها فى المستقبل • فشرفونى قبل يوم
الأحد ، لأنى مبارح القاهرة مساء الأحد الآتى ان شاء الله » ! •

وما حدث بعد هـذا التهديد ، لا توجد وثائق مكتوبـة
توضحه ، ولكنا نفاجأ بمصطفى كامل يلقى خطابا وطنيا فى مدينة
الاسكندرية يوم ٣ مارس ١٨٩٦ ــ أى بعد أيام قلائل من اليوم
الذى حدده للسفر الى أوروبا ! • ومعنى ذلك بصـورة حاسمة
عودة الحياة الى مجاريها بينه وبين الخديو ، وتلقيه أمرا بالبقاء
فى مصر •

وهنا يثور السؤال : ما الذى دعا الخديو عباس الثانى الى
الانصياع لتهديد مصطفى كامل ؟ •

هنـاك سـببان مطروحان : الأول ، حاجـة الخديو الى
مصطفى كامل فى صراعه مع الانجليز • خاصـة بعد ما أثبت

مصطفى كامل من كفاءة فى العمل السياسى • والثانى ، خشية الخديو عباس حلمى من مصطفى كامل ، بعد أن أثبت له أنه يستطيع مخالفته وعدم اطاعة أوامره والتمرد على تعليماته عند اللزوم ! •

وفى الحقيقة أن هناك سببا آخر أشعر الخديو عباس بأن مصطفى كامل يمكن أن يكون حربا عليه عند اللزوم ، ويفتح عليه جبهة ثانية • فعندما كان مصطفى كامل فى أوروبا ، وحين أحس بتزايد الدسائس فى القصر ضده ، أعلن ولاءه للسلطان العثمانى الذى هو صاحب السيادة على مصر • فقد كتب الى عبد الرحيم أحمد يوم ٣٠ يولية ١٨٩٥ يخطره بأنه فى عزمه « عقد حفلة مصرية محضة فى ٣١ أغسطس الآتى ، بمناسبة عيد جلالة السلطان ، حتى لا يقال ان سياستى حادت عن السياسة العثمانية ، بل انها مصرية تركية » • وفى الحفل الذى أقامه أعلن « أن الراية العثمانية هى الراية الوحيدة التى يجب أن نجتمع حولها » ! •

وقد استحق مصطفى كامل بهذا الاحتفال رضاء السلطان العثمانى ، حتى انه تلقى خطابا من سفير الدولة العثمانية يبلغه فيه رسميا « امتنان الحضرة السلطانية الامتنان العالى » • وقد نشر نص هذا الخطاب فى الصحف بعد أن أرسله مصطفى كامل اليها ، وكتب به فخورا الى عبد الرحيم أحمد ! • ولكن هذا

العمل لم يلق ارتياحا من القصر فى مصر ، خاصة أنه حدث ومصطفى كامل يشكو من نفاد المال ويطلب غيره ! • وقد رد مصطفى كامل على ذلك فى خطابه لعبد الرحيم أحمد يوم ١٨ سبتمبر ١٨٩٥ بقوله : « ومما يلومنى عليه ، وليمة السلطان، وكون الناس تتساءل : من أين أصرف هنا ؟ • ولم اللوم على وليمة السلطان وقد عقدت مثلها السنة الماضية ، وصرفت عين المصاريف ؟ » •

وعلى ذلك فقد كان على عباس حلمى انهاء مقاطعته لمصطفى كامل ، ولكن على أساس جديد هو العمل فى مصر لا فى أوروبا ! • وهذا هو السبب فى هذا التحول الفجائى فى خطة مصطفى كامل ، التى قامت حتى لحظة عودته الى مصر ، على أن ميدان العمل ضد انجلترا هو فى أوروبا لا فى مصر • بدليل معارضته فى عودته الى مصر الى حد التمرد ، وعدم اطاعة أوامر الخديو ! • بل انه كتب الى الخديو يوم ١٦ سبتمبر ١٨٩٥ يقول: « ان وطنيتى وحبى للأمير يقضيان على أن أرفض رفضا قطعيا العودة الى مصر ، ما دام الانكليز فيها » ! •

وفيما يبدو أن الخديو عباس أقنع مصطفى كامل بأن أى عمل فى أوروبا ، اذا لم يستند الى قوة الرأى العام فى مصر ، فلن يقدر له النجاح ، وأن هذا هو سبب الالحاح عليه فى عودته الى مصر •

وفى هذا الضوء تعد خطبة مصطفى كامل فى المسرح العباسى فى الاسكندرية يوم ٣ مارس ١٨٩٦ ، بداية تحول هام فى العمل الوطنى ، وهى ليست بعيدة الصلة عن نشاط الخديو ، لأن اسماعيل بك الشيمى ، الذى نظم هذه الحفلة ، والذى أقام عنده مصطفى كامل بالاسكندرية ، كان ياور الخديو ! • وان كانت قناعة مصطفى كامل بالدور الأوروبى فى حمل انجلترا على الجلاء لم تزل تملك عليه عقله ، بدليل أنه ألقى خطبته الثانية فى مسرح زيزينيا بالاسكندرية بعد أربعين يوما — أى فى يوم ١٣ أبريل ١٨٩٦ — باللغة الفرنسية لا العربية ! ، وألقاها على الأوربيين المقيميين فى مصر •

على أنه فى نفس هذا العام ١٨٩٦ كانت محاولات الخديو عباس لتجميع قوة وطنية ، تعمل مع مصطفى كامل فى خدمة القضية الوطنية ، تتكلل بالنجاح بتأليف جمعية سرية تحت رئاسة الخديو ! وكانت الظروف قد تهيأت لذلك حين ألف أحمد لطفى السيد ، الذى كان قد عين وكيلا للنيابة فى ذلك العام ، جمعية سرية من زملائه ، غرضها — كما يقول — « تحرير مصر » • وقد ضمت هذه الجمعية ، فيمن ضمت ، عبد العزيز فهمى وأحمد طلعت رئيس النيابة •

ولم يخف تأليف هذه الجمعية عن الخديو ، فيذكر أحمد لطفى السيد أنه « ذات يوم ، كنت بالقاهرة بعد تأليف تلك الجمعية ، فالتقيت بمصطفى كامل ، فقال لى : ان الخديو

عباس يعلم كل شيء عن جمعيتكم السرية وأغراضها ، وأظن أنه لا تنافى بينها وبين أن تشترك معنا فى تأليف حزب وطنى تحت رياسة الخديو » ! . فأجبته : « لا مانع عندى من ذلك » .

ثم يقول أحمد لطفى السيد ان مصطفى كامل « أبلغ الخديو هذا القول ، وأستأذن لى فى مقابلة سموه . وذهبت اليه، فتحدث معى سموه عن أغراض الحزب الذى يريد تأليفه . وبعد ما خرجت من مقابلة الخديو عباس ، اجتمعت أنا ومصطفى كامل وبعض زملائنا فى منزل محمد فريد ، وألفنا الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو ، وأعضاؤها مصطفى كامل ومحمد فريد ، وسعيد الشيمى ياور الخديو ، ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) ، ولبيب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) . وأنا » ــ أى أحمد لطفى السيد .

وهذا الحزب الوطنى ، الذى يتحدث عنه أحمد لطفى السيد ، غير الحزب الوطنى الذى ألفه مصطفى كامل فى عام ١٩٠٧ . فالأول جمعية سرية تحت رياسة الخديو ، وكان يجتمع بها ليلا فى مسجد « بناحية سراى القبة » ــ والثانى هو الحزب الوطنى الذى ألفه مصطفى كامل فى ظروف مختلفة . ويقول أحمد لطفى السيد ان أسماء أعضاء هذه الجمعية السرية كانت مستعارة ، فقد كان اسم الخديو بين الأعضاء ، « الشيخ »، ومصطفى كامل « أبو الفداء » ، وأحمد لطفى السيد « أبو مسلم » ! .

وقد كانت فكرة الخديو هى انشاء جريدة فى مصر تقاوم الاحتلال البريطانى . وحتى تكون غير خاضعة لسلطة الاحتلال ، فقد رأى الخديو أن يسافر لطفى السيد الى سويسرة للتجنس بالجنسية السويسرية ، حتى يتمتع بالامتيازات الأجنبية ، ويعود ليصدر الجريدة . فسافر فعلا الى جنيف ، ولكن اتصالاته بالشيخ محمد عبده هناك أغضبت الخديو منه ، لأنه لم يكن يميل الى الشيخ محمد عبده . ولذلك يذكر أنه عندما عاد الى مصر « جاءنى مصطفى كامل ، وأفضى الى بأن الخديو مغضب منى لأسباب منها اتصالى بالشيخ عبده » ! . ثم قال مصطفى كامل : « ومع ذلك لم ننجح فى الحصول على موافقة الباب العالى على تجنسك بالجنسية السويسرية » .

فى ذلك الحين كانت الصيغة التى تم الاتفاق عليها بين الخديو ومصطفى كامل هى الجمع بين العمل الوطنى فى الداخل وفى الخارج ، لأن مصطفى كامل لم يلبث أن سافر الى أوروبا فى أول أغسطس ١٨٩٦ ، وهو سفر ليس بعيدا عن نشاط الخديو ، لأن جريدة المؤيد للشيخ على يوسف ، الوثيق الصلة بعباس الثانى ، نوهت بسفر مصطفى كامل فى عددها الصادر فى ٢ أغسطس ١٨٩٦ قائلة : « كان من جملة الذين بارحوا ثغر الاسكندرية أمس الى أوروبا ، حضرة الكاتب الفاضل والخطيب

الوطنى البليغ مصطفى أفندى كامل ، فودعه على ظهر البحر كثير من أصدقائه واخوانه » ! •

وقد تمثل نشاط مصطفى كامل فى تلك الرحلة ، التى استغرقت ثلاثة أشهر ، (من أول أغسطس الى ١١ نوفمبر ١٨٩٦) فى الأحاديث التى أدلى بها فى الصحف فى باريس وبرلين وفيينا ، التى عبر فيها عن كراهية الشعب المصرى للاحتلال ، وهاجم فيها بريطانيا لرفضها الجلاء ، وأكد حق مصر فى الاستقلال : ودعا « كل ذوى الضمائر الحرة من جميع الأمم لانقاذ مصر » • كما قابل بعض رجال السياسة فى ألمانيا والنمسا ليشرح لهم فيها المسألة المصرية • كما استغل بذكاء ثورة الصحافة الأوروبية على الدولة العثمانية بسبب مذابح الأرمن ، فكتب الى المستر جلادستون يلومه لأنه يكيل بمكيالين ، فيدافع عن الأرمن ، ويسكت على الاحتلال البريطانى لمصر ! •

ولكن أهم ما فعله فى تلك الرحلة هو ذهابه الى الآستانة فى ٢٧ نوفمبر ١٨٩٦ • ولما كان فى العام السابق قد احتفل بعيد السلطان العثمانى ، وأعلن فى الاحتفال أن الراية العثمانية هى الراية التى يجب أن يجتمع حولها المصريون ــ فلذلك لقى حفاوة كبيرة ، وقابله السلطان العثمانى بعد ثلاثة أيام ، ليعرب له عن اعجابه به وحسن تمنياته ، وأهداه هدية ثمينة هى علبة

سجاير من الذهب مرصعة بالمــاس والأحجار الكريمــة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة .

ومن الطريف أن الســلطان العثمانى أبدى رغبته فى منح مصطفى كامل رتبة أونشانا ، ولكنه اعتذر ، حتى لا يتهم من قبل خصــومه فى مصر بسعيه الى الألقاب والنياشين ! . فلما عاد الى مصر لامه أصدقاؤه على عدم القبول ، لأن الألقــاب فى مصر والشرق تعظم من شأن الرجل وتعلى من قدره ، وتساعده على الظهور فى قومه . وقد اقتنع مصطفى كامل بهذا المنطق ، وقبل من السلطان فى ١٨٩٩ رتبة البكوية ، وفى عام ١٩٠٤ رتبة الباشــوية .

وقد عاد مصطفى كامل الى مصر ١٨٩٧ ليواجه مؤامرات الاحتلال . نظرا لأنه بلغ سن الثانية والعشرين من عمره ، فقد أوعزت السلطات البريطــانية الى مجلس قرعة القاهرة بطلبــه للتجنيد فى غيابه ! فطلب المجلس من مأمور قسم الخليفــة ، الذى كان مصطفى كامل يتبع له ، تبليغ اعــلان الاقتراع لأحد أفراد بيته ، فاذا مضت ثلاثة أشــهر على الاعــلان دون معارضة، يصبح تجنيده واجبا . وهكذا فوجىء مصطفى كامل عند دعوته باعلان القسم بوجوب تجنيده ، لعدم اعتراضــه على الاعــلان الأول ! . ولكنه تمكن من الحصــول على اقرار من شيخ الحارة يفيد أنه لم يسلم هذا الاعلان الأول لذويه . ولمــا كانت قوانين

البلاد تستثنى من القرعة حملة شهادة الحقوق والقادرين على دفع البدل ، فلذلك عجزت السلطة البريطانية عن تحقيق أغراضها فى انتزاع مصطفى كامل من مهمته الوطنية التى جند نفسه لأجلها ، وتجنيده كنفر تحت سلطة ضباطها البريطانيين ! •

وفى السنتين التاليتين ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ ، كثف مصطفى كامل من حملاته الدعائية ضد الاحتلال فى أوروبا • فقد سافر الى أوروبا مرتين فى عام ١٨٩٧ ، الأولى من ١٢ مارس الى ١٢ مايو ، وقد زار فيها فيينا وبوخارست وبرلين وباريس ، والثانية من ٢٦ يونية الى ١٠ أكتوبر ، وقد زار فيها الآستانة وبودابست وفيينا وباريس • وفى عام ١٨٩٨ زار أوروبا فى الفترة من ٢٤ يونية الى ١٨ سبتمبر وزار فيها باريس وبرلين •

وكان مصطفى كامل يحصل على بعض نفقات هذه الرحلات من صديقه محمد فريد ، كما يفهم من خطاباته اليه ! • ففى يوم ٢٢ يوليو ١٨٩٨ أرسل اليه من باريس يقول : « أرجوك غاية الرجاء أن ترسل لى يوم وصول هذا خمسمائة فرنك بالتلغراف بواسطة الكريدى ليونيه • لاعدمتك أخا وفيا » • وفى ١٩ أغسطس كتب اليه من باريس يقول : « أظن أنى أسافر ابرلين يوم السبت أو الأحد القادم ، وأملى فى همتك العالية ووفائك أنك ترسل لى تلغرافيا يوم السبت صباحا

(٢٧ أغسطس) بواسطة الكريدى ليونيه آلف فرنك ، ولو كلفك مهما كلفك ، حتى لا أضع نفسى فى موقف حرج » •

ـ أما فيما يختص ببقية المساعدات المالية فكان يأخذها ـ كما يقول محمد فريد فى مذكراته ـ من الخديو أو من السلطان عبد الحميد ! •

ومعنى هذا الكلام أن مصطفى كامل كان حتى ذلك الحين يؤمن بأن العمل فى أوروبا هو الكفيل باجبار انجلترا على الجلاء عن مصر ! •

وفى الحقيقة أنه كان لدى مصطفى كامل والخديو عباس الثانى فى ذلك الحين ما يدعوهما الى الأمل فى تدخل فرنسا لصالح مصر سريعا • ففى ذلك الوقت كان التنافس الاستعمارى بين فرنسا وانجلترا فى قلب افريقيا على أشده ، وكان الصراع على اقتسام مناطق النفوذ فى السودان قد بلغ ذروته • وقد فكرت فرنسا فى استغلال المسألة المصرية لانتزاع مركز هام فى أعالى النيل ، تصد به تيار الزحف الانجليزى فى باطن افريقية ، وتفتح باب المسألة المصرية على مصراعيه ، وتجبر انجلترا على تنفيذ عهودها فى الجلاء عن مصر • ولتنفيذ هذه الاغراض أعدت حملة عسكرية بقيادة الكابتن مارشان لاحتلال فاشودة الواقعة على النيل •

وقد استطاع الساسة الفرنسيون اقناع الخديو ومصطفى كامل ومن يلتف حولهما من المصريين ، بأن حملة مارشان هى الحاملة لراية استقلال مصر ! • فصاروا ـ كما كتبت مدام جوليبيت آدم فيما بعد ـ « يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان » على يد فرنسا •

وهذا يفسر الخطاب الذى بعث به مصطفى كامل الى محمد فريد يوم ٥ أغسطس ١٨٩٨ من باريس • فقد كتب يقول : « شرف العزيز (أى الخديو) وسافر ! • وتشرفت بمقابلته جملة مرات ـ وهذا الخبر لك وحدك ! • وعلمت منه أمورا جمة سرتنى للغاية (يقصد أخبار حملة مارشان الفرنسية) وشرحت صدرى وحققت لى أن الأمل ملء فؤاده ، وأن ليس لليأس عليه سلطان • وسأقابله مرة أخرى فى الشهر الآتى • وقد قابل هنا وهناك كل ذى شأن وكل عظيم ، واستمال من لا يستمال • فله منا الود والاخلاص والحب الحقيقى ، وانه لجدير بأن تتفانى فى محبته • ولم أكلفه مدة وجوده ، ولم أطلب منه شيئا ، ولو أن سفرى لألمانيا سيكلفنى كثيرا كثيرا ، وذلك لأنى لا أود أن أجعله يرتاب فى اخلاصى الخالص له • وسأبذل جهودى بعد عودتى للوطن المحبوب فى أن أكون مستقلا غاية الاستقلال ، لنزداد عنده مكانة ونفوذا » •

على أن انجلترا أنتهزت فرصة حملة مارشان ، لتقلب

المائدة على رأس فرنسا ومن يعلقون عليها الآمال ! • فحين احتل مارشان فاشودة يوم ١٠ يولية ١٨٩٨ ، تظاهرت انجلترا بالدفاع عن حق مصر فيها ، واحتجت باسم مصر على فرنسا باعتبار فاشودة أرضا مصرية • ثم أعد اللورد كتشنر ، سردار الجيش المصرى ، حملة مكونة من ١٨٠٠ مصرى ومائة جندى بريطانى ، وصلت الى فاشودة فى سبتمبر ١٨٩٨ ، وأبلغ مارشان أن رفعه العلم الفرنسى « على أملاك سمو الخديو » يعد انتهاكا لحقوق مصر ! • وهنا توترت العلاقات بين فرنسا وانجلترا الى الحد الذى هدد بقيام الحرب بينهما • ولكن فرنسا تخاذلت ، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة • وهو ما تم يوم ١١ ديسمبر ١٨٩٨ •

وقد كان من الطبيعى أن تمثل حادثة فاشودة ضربة قاسية لكل الوطنيين الذين كانوا يعلقون الآمال على فرنسا ، وعلى رأسهم مصطفى كامل والخديو عباس ! • وان اختلف رد الفعل عند كل منهما •

ففيما يتصل بالخديو عباس ، فقد أخذ منذ ذلك الحين يتجنب الدخول فى أزمات بينه وبين بريطانيا ، قد تعرض عرشه للخطر ، فلا يجد معينا من أوروبا أو تركيا • بل أخذ فى التودد الى الاحتلال والنزول عند ارادته ، حتى انه زار لندن عام ١٩٠٠ ! •

أما فيما يتعلق بمصطفى كامـل فقد اتخذ رد فعل حادثة فاشودة عنده اتجاها عكسيا • لقد كتب الى جريدة « جلوا » يقول : « نحن لا نطلب من فرنسا أن تحارب بريطانيا من أجل فاشودة • كلا ، ولكنى كنت أرى من الحكمة أن تشترط فرنسا ، قبل أن تترك فاشودة ، على بريطـانيا أن تعيد كل شيء كما كان فى مصر • لكنها أخجلتنا بالحط من كرامتنا » ! •

ثم أخذ مصطفى كامل ينقل نشاطه من أوروبا الى مصر فى أعقاب هـذه الحادثة • ففى خـلال عام ١٨٩٩ أخذ يعد العدة لاصـدار جريدة يومية ، يتصل من خلالها بالرأى العام فى مصر، خصـوصا بعد أن أخذت جريدة « المؤيد » ، الوثيقـة الصلة بالخديو ، تبدى نوعا من الفتور فى نشر بعض مقالات مصطفى كامل ، بسبب فتور علاقته مع صاحبهـا • وقد صـدر العدد الأول من « اللواء » يوم الثلاثاء ٢ يناير ١٩٠٠ •

وبصدور « اللواء » يدخل نضـال مصطفى كامل منعطفا خطيرا • فهو يمثل البداية الحقيقية لصياغة الرأى العام فى مصر صياغة وطنية صلبة ضد الاحتلال ، ويمثل بالنسبة لمصطفى كامل، البداية الصحيحة لزعامته السياسـية • فحتى ذلك الحين كانت معرفة الرأى العام المصرى بمصطفى كامل تتم من خلال ما يصل اليه من أخبار نضاله فى أوروبا من أجل المسألة المصرية فى الأعوام الخمسة السابقة ، ومن خـلال قليل من الخطب التى ألقاها فى

مصر ، وبعض المقالات • ولم يكن فى عين الرأى العام أكثر من « حضرة الكاتب الفاضـل والخطيب الوطنى البليغ » ! ـ كما وصفته جريدة المؤيد •

ولكن انشاء جريدة « اللواء » كان اللبنة الأولى فى انشاء الحزب الوطنى ، ليس بمعنى « الجمعية السرية » التى تألفت قبل أربع سـنوات تحت رياسة الخديو ، وانما بمعنى الحزب الجماهيرى الذى يعمل تحت رياسة مصطفى كامل ، والذى ارتفع بمستوى المعركة ، التى كانت دائرة على السلطة بين الخديو عباس والانجليز ، الى مستوى معركة وطنية لتحرير البلاد •

وفى الحقيقة أن الأحزاب السياسية فى مصر نشأت فى تلك الفترة التاريخية فى شكل صحف سياسية ! ، ثم أعلنت نفسها فيما بعد أحزابا • فقد ظهر حزب الأمة أول ما ظهر فى شـكل صحيفة سياسية باسم « الجريدة » صدرت فى ٩ مارس ١٩٠٧ • كما تحولت جريدة « المؤيد » الى حزب « الاصلاح على المبادىء الدستورية » فى ٩ ديسمبر ١٩٠٧ • ثم تحولت جريدة « اللواء » الى « الحزب الوطنى » فى ٢٢ أكتوبـر ١٩٠٧ • وهـذا هو السبب الذى دعا بعض المؤرخين الى وصف هـذا الصور من أطوار الحركة الوطنية باسم « الطور الصحافى » !.. •

وفى الفترة من ظهور « اللواء » فى ٢ يناير ١٩٠٠ الى ١٩٠٤

كانت « اللواء » لا تدخر وسعا فى دعوة الشعب الى الالتفاف حول الخديو عباس الثانى ، باعتباره ـ حسب قولها ـ « أول أمير أرشد الأمة الى محبة الوطن ، وأوقفها على ما لها من الحقوق ، وما يجب أن تكون عليه من المجد الجزيل والشرف الأثيل » •

على أنه فى عام ١٩٠٤ أخذت تتجمع بعض الأسباب التى أثرت على علاقات مصطفى كامل بالخديو عباس ، ودعته الى قطع علاقته به • وأول هذه الأسباب مساندة الخديو للشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، فى قضية زواجه من صفية ابنة السيد عبد الخالق السادات • وكان السيد السادات قد رفض زواج ابنته بالشيخ على يوسف لعدم الكفاءة ! • فرغم أن الشيخ على يوسف كان من نجوم المجتمع ومقربا من الخديو ، وصحفيا كبيرا ، الا أن صفة « الكفاءة » فى ظروف المجتمع المصرى الرجعى التى كان يمر بها وقتذاك ، كانت تقوم على شرف المولد ولا تقوم على العصامية والجهد الشخصى ! ولكن الشيخ على يوسف لم يعبأ بموافقة السيد السادات وتزوج بابنته رغما عنه ! ، مما دفعه الى رفع قضية على الشيخ يطلب فسخ زواجه بها لعدم الكفاءة الاجتماعية ! •

وقد افترق موقفا كل من الخديو عباس ومصطفى كامل ازاء هذه القضية • فقد وقف مصطفى كامل موقفا معاديا

ومهاجما ، ممالئا الرأى العام ، الذى كان ــ بسبب تخلفه ــ ضد زواج الشيخ على يوسف بصفية السادات رغم ارادة أبيها ! ــ بينما وقف الخديو مؤيدا ، حتى انه أرسل أخاه محمد على لمصر قبل ميعاد عودته من أوروبا ليتـــكلم مع قاضى مصر اذ ذاك يحيى فاضل ! . وسرعان ما أدى هــذا الخلاف الى صــدام خطير بين مصطفى كامل والخديو .

وقد جرت مناسبة الصــدام حين اجتمع الخديو بكل من مصطفى كامل ومحمود بك أبو النصر ومحمد فريد فى أغسطس عام ١٩٠٤ فى ديفون Divonne الحمامات بفرنسا ، وتناول الحديث قضية زواج الشيخ على يوسف . فأخذ مصطفى كامل ــ كما يقول محمد فريد فى مذكراته ــ « يلوم الخديو بلطف على مداخلته فى هــذه القضية ، مبينا له أن هــذه المداخلة تسىء الى سمعته ، خصــوصا وأن الرأى العام كان ساخطا على الشيخ على لزواجه بالبنت رغم ارادة والدها . فقال الخديو : رأى عام ايه يا شيخ ؟ ! . هو فيه حاجــة اسمها رأى عــام أو أمة ؟ . أنــا ان لبست برنيطة ومشيت فى البلد ما أحد يتكلم ! . ثم احتد الخديو وقال لمصطفى كامل أخيرا : أنــا ماحبش تنصحنى! . أنــا عارف الواجب على ! . وقام زعلانا . فبقينا نحن . وكان مصطفى كامــل فى حالة هيــاج شديد ، يقول : لابد من قطع علاقاتى مع هذا الرجل » ! .

ثم يقول محمد فريد : « وقد عدنا بعد ذلك مع مصطفى كامل الى مدينة جنيف • فأراد مصطفى أن يكتب للخديو جوابا يقطع علاقاته معه • فمنعناه بكل مشقة • ولكنه صمم على رأيه فى نفسه • ولما عاد الى مصر فى سبتمبر ، حرر الجواب المشهور ، وأرسله اليه من اسكندرية ، وأرسل صورته الى جريدة الأهرام قبل مقابلتى حتى لا أمنعه » •

على أن سببا آخر حدث بعد هذه المقابلة ، وكان هو القشة التى قصمت ظهر البعير • ففى يوم ٨ سبتمبر كان مصطفى كامل قد اتفق مع الخديو على الحضور الى باريس لزيارة مدام جولييت آدم • واستعدت مدام جولييت آدم بالفعل لاستقبال الخديو ، ودعت عظماء القوم • ولكن فى اليوم الموعود أرسل الخديو تلغرافا الى السيدة يعتذر فيها عن الحضور ! •

ويقول مصطفى كامل فى خطاب أرسله لشقيقه على فهمى يوم ١٣ سبتمبر ، ان الخديو جاء بعد يومين الى باريس ، ومعه « رفيقته » (عشيقته) ، وهو تحت قدميها ، وانى يا أخى قرفت من خدمة هذا الرجل ، وكل الآلام المادية والفكرية التى لحقت بى فى هذه السنين نشأت من استيائى من الوجود بجانبه فى ذلك الوسط الفاسد ، المختل احساسا وشرفا ووطنية وفضيلة • ولذلك ترانى مصمما قطعيا على الانفصال عنه نهائيا ،

ولو صرت مكبلا فى الديون » • ثم يقول مستدركا : « ولكن ليس معنى هـذا العزم معاداة الرجل • كلا ، لأن معاداته تعد منى لؤما ودناءة ، وتسبب شماتة الأعداء ومتاعب كثيرة • ولكنى أريد أن أكون مستقلا ، أريد ألا يقال انى أكتب وأخطب بايعاز من هـذا المجنون » ! •

ثم قـدم مصطفى كامل النصيحة لشقيقه لمواجهـة ما قد يثير الشيخ على يوسف ، صديق الخديو وصاحب المؤيد ، ضده بسبب هـذه القطيعة فى جريدته ، فقال : « ولو فرضنا وكتب المؤيد أو غيره : ان الخديو غاضب على صـاحب اللواء (أى مصطفى كامل) ــ وهو ما لا أظنه ــ فلا تكتب الا شيئا واحدا : لمـاذا ؟ هل خطف صاحب اللواء فتاة فى خدرها ؟ هل هـدم أركان الفضيلة ؟ هل حارب الاسـلام فى مشروعاته الحيوية ؟ ــ ولا تزد » ! • يريد مصطفى كامل أن يطعن الشيخ على فى مسألة زواجه بابنة السادات رغم ارادة والدها ! •

ويتضح من ذلك جيدا أنه لا صلة بين الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا فى ٨ أبريل عام ١٩٠٤ ، وبين قطيعة مصطفى كامل للخديو ــ كما كتب المؤرخون ! • وكانت الدولتان قد قسمتا فى هـذا الاتفاق الودى ، مناطق النفوذ بينهما ، فاستأثرت فرنسا بمراكش واستأثرت انجلترا بمصر ، وكان لذلك وقع أليم فى مصر ، وكان قاطعا فى ازالة الأمل فى فرنسا •

فقد اعتقد بعض المؤرخين أن الخديو اتجه بعد هذا الوفاق الودى الى التودد الى الانجليز ، مما دفع مصطفى كامل الى اعلان قطع علاقته به ! • مع أن الذى دفع الخديو الى التودد الى الانجليز هو — فى ضوء المعلومات السابقة — انقطاع علاقته بمصطفى كامل ! •

وكان ذكاء مصطفى كامل قد دفعه الى الايحاء بأثر الوفاق الودى ، وبما أحدثه من ظروف جديدة ، فى القطيعة التى أعلنها • فقد أعلن فى كتابه « أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على بأن أكون بعيدا عن فخامتكم ، وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، منعا لتكدير خاطركم الشريف ، ودفعا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع • وانه ليحلو لى أن أبقى الى آخر لحظة من حياتى خادما لتلك المبادىء الوطنية العالمية ، التى كنتم سموكم أول الداعين اليها والمنادين بها » •

ولم يتردد مصطفى كامل بعد ذلك فى انتقاد الخديو عباس علانية بعد شهر واحد • فعندما أحال الخديو حسن باشا عاصم ، رئيس الديوان ، الى المعاش ، أظهر مصطفى كامل أسفه على حرمان هذا المنصب السامى من رجل اشتهر بالنزاهه والكفاية• وكان يلمح بذلك الى ان الاحالة الى المعاش كانت بسبب رفض حسن عاصم اقرار صفقة أطيان مشتهر التى كانت تهم الخديو ! •

كما انتقد الخديو عباس لوقوفه تحت العلم البريطـانى فى حفـلة اسـتعراض الجيش الانجليزى بميـدان عابـدين فى نوفمبر ١٩٠٤ ، ولم يكن يحضرها من قبل .

وهكذا انقطعت الصلة الخاصة بين مصطفى كامل والخديو عباس . وقد كانت هناك أسباب هامة مكنت مصطفى كامل من اتخاذ هـذه الخطوة الجسيمة . منها الاستقلال المـالى الذى وفرته له جريدة « اللواء » . فقد أصبحت أكثر الصحف المصرية انتشارا . وقد ذكر سـلامة موسى ، فى ذكرياته عن القـاهرة فى ١٩٠٣ ــ ١٩٠٧ ، ان الطلاب وغيرهم كانوا يتخاطفون اللواء فور صدورها . وكانت تصـدر بعد الظهر مثل معظم الصحف . وكان مقر « اللواء » الأول بالمنزل رقم ١٣ بشارع فهمى بجوار محطة باب اللوق ، ثم انتقل بعد حوالى عامين الى منزل فخم برقم ٢٩ بشارع الدواوين (الذى أصبح شارع نوبار فيما بعد) أمام وزارة الحقانيـة . وقد عرف « بدار اللواء » وتوفى فيه مصطفى كامل . وقد تحولت « اللواء » لتصبح أغنى الصحف المصرية بعد جريدتى الأهرام والمقطم ! .

أما السبب الثانى من أسباب قوة مصطفى كامل فى مواجهة الخديو ، فهو استناده ، بعد صـدور « اللواء » ، الى الرأى العام ، والى المجموعة الوطنيـة التى التفت حوله ، مثل أمين الرافعى ، وأحمد حلمى ، وعبد العزيز جاويش ، ومحمد فريد ،

وعلى فهمى ، والتى أخذت تنمو • حتى اذا حان وقت تأليف الحزب الوطنى رسميا فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ ، رأينا من الأعضاء شخصيات لها شأن مثل : ويصا واصف ، واسماعيل لبيب ، ومحمد حافظ رمضان ، وعمر سلطان ، ومحمود أنيس ، وفؤاد سليم حجازى ، وعلى المنزلاوى ، وغيرهم •

وفى الواقع أن الحظ الوطنى الذى اتبعه مصطفى كامل فى « اللواء » هو الذى أبرز زعامته فى عين الشعب • فقد أصبح على احتكاك يومى به ، بعد أن كان نشاطه خارج مصر فى أوروبا يبعده لحد كبير عن نبض الجماهير • وبعد أن كان يكثر من لوم الشعب ، حتى كتب الى محمد فريد يوم ١٩ أغسطس ١٨٩٨ يقول : « لا أحد غيرك فى المصريين نصيرا يساعدنى على خدمة الوطن » ثم يقول : « ما على الا الامتثال لارادة الخالق ، الذى كأنه أراد أن أكون الوحيد فى خطتى ، الفرد المطالب بالاستقلال » ! • فان اقبال الجماهير على « اللواء » والتحامها « بصاحب اللواء » ـ كما عرف مصطفى كامل ـ قد غير من نظرته ، ففى خطابه المشهور يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ تحدث عن « الروح الجديدة التى دبت فى الأمة » ، وسخر من « الذين كانوا لا يرون فينا الا أمواتا تتحرك » ! ـ أى سخر من نفسه !•

وبعد أن كتب فى ٢٩ أغسطس ١٨٩٥ يقول « دعنى بالله عليك من هذه الأمة التى بلانى الله بأن أكون واحدا من أبنائها ـ

خطب بعد اثنى عشر عاما يقول : « لو لم أولد مصريا ، لوددت أن أكون مصريا » ! •

وقد اعترف مصطفى كامل بخطأ سياسة الاعتماد على فرنسا وأوروبا ، بعد أن ثبت عـدم جدواهـا بعد الاتفـاق الودى عام ١٩٠٤ • وقال : « ان العزلة التى صرنا اليها بعثت فينا روحا جديدا ، أرشدنا الى الحقيقة ، التى لا قوام لشعب بدونهـا ، ولا حياة لأمة بغيرها ، ولا وجود لنفر من الناس اذا لم يتبعوها وهى أن الأمم لا تنهض الا بنفسـها ، ولا تسترد اسـتقلالها الا بجهودها » ! •

وهذا الادراك هو الذى صنع فى الحقيقة زعامة مصطفى كامل ! • فلا يصنع زعامة الزعماء اعتمادهم على القوى الخارجية والشعوب الأجنبية لتحرير بلادهم ؛ وانما يصنع هـذه الزعامة الاعتماد على شعوبهم والتوافر على توعيتها ، وتربيتها التربيـة السياسية ؛ وتعبئة شعورها الوطنى ضد غاصبيها ومحتليهـا • وهذا ما فعله مصطفى كامل من خلال جريدة « اللواء » ! •

وقد فعله أيضا مصطفى كامل من خـلال خطبه الوطنيـة الحماسية الفريدة ، التى استخدم فيها الجمل الضخمة العاطفية التى تندفع بها الجموع الى الغاية التى يريدهـا الزعمـاء دون روية • ولقد كانت نفوس الشباب المصرى متعطشة لهذا الأسلوب

الوجدانى ، الذى اختفى منذ الثورة العرابية ، لتحيا بالأمل فى حياة عزيزة .

ففى خطابه يوم ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧ ينشد مصطفى كامل قائلا : « بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر » ! . ثم يقول :

« يقول الجهلاء والفقراء فى الادراك انى متهور فى حبها ! .

وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ . انه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو اليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها » ! .

وعندما وقع حادث فاشودة الذى خيب ظن الوطنيين ، أطلق عبارته المأثورة « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » . وكان ذلك فى خطابه بالقاهرة يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٩٨ .

وقد كان أقوى تأثير لمصطفى كامل بين الفئات المثقفة من بلاده من الطبقة الوسطى ، من الطلبة والموظفين والمحامين وغيرهم من أصحاب المهن الحرة . وقد استطاع أن يخاطب البورجوازية المصرية الوطنية بلغة المصالح التى تفهمها ، فيقول :

« متى تخلصت التجارة من الشكل الذى يسببه لها الاحتـلال الانجليزى ، فستفتح لنا ولكم آفاقا ذهبيـة • ومتى تخلصت الصـناعة من العوائق التى يخلقها لها الانجليز فى الجمـارك ، فسترقى الصناعة الأهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصر » ! •

وقد استطاع مصطفى كامـل أن ينفذ الى قلوب الفلاحين المصريين بموقفه الرائع من مأساة دنشواى المشهورة ، حين وقع صدام بين الفلاحين وعدد من جنود الاحتـلال ، الذين كانوا يصطادون الطيور ببنادقهم ، وترتب عليه موت أحد الضـباط واصابة آخرين ، ثم عقدت محكمة مخصوصة لمحاكمة المتهمين ، وقضت باعدام أربعة منهم شنقا ، وحكمت على ستة بالاشغال الشاقـة لمدد متفاوتة ، وبالسجن سبع سـنوات على سـتة ، وبالحبس مع التشغيل مدة سـنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة • ونفذ الحكم بطريقة وحشية فى اليوم التـالى لصدوره فى نفس القرية ، وفى المكان الذى مات فيه الضابط الانجليزى ! •

كان مصطفى كامل فى أوروبا حين وقعت المـأساة ، ورغم أنه كان ذاهبا للاستشفاء ، الا أنه هب يؤلب أوروبا على انجلترا، ويعلن أن « يوم ٢٨ يونية ١٩٠٦ سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا ، وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية » •.ثم يسأل الأمة الانجليزية فى بيانه ، الذى أصدره

بعنوان « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين » عما اذا كان يليق بها أن تترك ممثليها فى مصر يلجئون ، بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما ، الى وسائل همجية ليحكموا مصر ؟ » •

ثم قصد مصطفى كامل الى لندن يوم ١٤ يولية عام ١٩٠٦ ليرفع صوت مصر فى عاصمة الدولة المحتلة ، ويتخذ من الحادثة مرتكزا للمطالبة باستقلال مصر •

وقد عاد مصطفى كامل الى مصر ليعيد علاقته مع الخديو من جديد لمواجهة أخطار الاحتلال ، واستغلال الحادث الوحشى فى تعبئة شعور الجماهير ضد الانجليز • ولذلك فقد طلب ، حين كان فى أوروبا ، مقابلة الخديو من خلال أحمد شفيق باشا ، رئيس الديوان ، ولكن الخديو رفض • فلما عاد مصطفى الى مصر استطاع بواسطة الدكتور صادق رمضان ، اقناع الخديو بهذه المقابلة ، فتم اجتماع فى عزبة الخديو فى مسطرد ، حضره مع مصطفى كامل كل من محمد فريد ولطيف سليم باشا والدكتور صادق رمضان ، وتقرر فيه تأسيس الحزب الوطنى والنادى وانشاء جريدتين ، احداهما انجليزية باسم «الاجبشان ستاندارد»، والثانية فرنسية باسم « ليتاندار اجبسيان » — لتنوير الرأى العام الأوروبى فى مصر والخارج •

وكان الخديو يرى أن يكون الحزب الوطنى حزبا سريا ، ولكن مصطفى كامل وزملاءه أقنعوا الخديو بأن يكون الحزب

علنيا ، ولا بأس فيما بعد من تشكيل لجنة سرية أيضا ! • وقد ساهم الخديو عباس فى تأسيس الجريدتين ، كما أوعز الى الكثير من الأغنياء بالدفع • ويقول محمد فريد ان مصطفى كامل اكتتب بألف جنيه ! ، « ولكنى لا أدرى ان كان الخديو دفع له مساعدة فى هـذا المشروع أم لا ، لأنه رحمه الله يخفى كل ما يختص بالمساعدات المالية التى كان يأخذها ، سواء كان من الخديو أو من السلطان عبد الحميد » ! •

وقد كان بسبب مرض كرومر ونقد سياسته فى مجلس العموم أن قدم استقالته • ولما جاء خلفه « سير الدون جورست » أوصى حكومته بالافراج عن المحكوم عليهم فى دنشواى •

كانت كراهية مصطفى كامل للاحتلال البريطانى لا يضارعها الا حبه لمصر ، ورغبته فى استقلالها • وكان الاحتلال فى نظر مصطفى كامل هو علة العلل ، وهو أعظم الأسباب لتخلف الأمة وضعفها . وزوال الاحتلال معناه ازالة العوائق التى تعرقل رقى الأمة وتقدمها فى المناحى الاجتماعية والاقتصادية • وقد عبر مصطفى كامل عن ذلك فى قوله السالف الذكر « متى تخلصت التجارة من الشلل الذى يسببه لها الاحتلال الانجليزى ، فستفتح لنا ولكم آفاقا ذهبية ، ومتى تخلصت الصناعة من

العوائق التى يخلقها الانجليز فى الجمارك لغاياتهم ، فسترقى الصناعة وتعود فائدة ترقيها على أبناء مصر » •

وقد أدت هذه النظرة الى الاحتلال الى نتيجتها الطبيعية . وهى رفض التعامل مع الاحتلال أو الاتفاق مع الانجليز ، والنظر بعين الشك والريبة الى الوطنيين الذين كانوا يتعاملون مع الاحتلال كحقيقة واقعة فى خدمة مصالح بلدهم ، وللتخفيف من أضراره ما أمكن •

ومن أجل ذلك كان مصطفى كامل يتلقى من خصومه السياسيين الهجوم والسخرية ، لأنه فى الوقت الذى يتهم كل من يتصل بالانجليز بالمروق من الوطنية ، كان يلجأ اليهم فى نفس الوقت على صفحات جرائده بطلب الدستور والشكوى من القسوة التى تم بها الحكم والتنفيذ فى قضية دنشواى ! •

وقد كان مفهوم مصطفى كامل لاستقلال مصر متفقا مع الأيديولوجية (أى النظرية) السائدة فى عصره ، وهى أيديولوجية الجامعة الاسلامية • ففى ذلك العصر لم تكن فكرة « القومية المصرية » أو فكرة « القومية العربية » واضحة فى أذهان الناس ، بل كانت فكرة « الجامعة الاسلامية » ، التى ترى فى الاسلام رابطة أقوى من أية رابطة قومية أخرى ، وترى ضرورة تماسك شعوب الامبراطورية العثمانية للدفاع ضد الخطر الاستعمارى القادم من أوروبا •

ولهذا السبب كان مصطفى كامل يرى أن بقاء الدولة العثمانية « أمر ضروري للجنس البشري » ! وأنه من الضروري التفاف المسلمين حول عرش السلطان ، « فمملكة الخلافة الاسلامية هي فى الحقيقة مملكتنا ، وقبلتنا التي اليها نلجأ ونحوها نتجه » ! •

وفى هذا الضوء نفهم لماذا لم يطالب مصطفى كامل باستقلال مصر ورفع السيادة العثمانية عنها ، لأن استقلال مصر معناه تفتيت الدولة العثمانية ، وتفتيت الدولة العثمانية لا يفيد سوى الاستعمار الأوروبى ، ويتنافى مع وجوب تقوية الدولة العثمانية حتى تتمكن من صد المد الاستعمارى ، بل هو — أكثر من ذلك — يسلم مصر لقمة سائغة للاحتلال ، الذى لم يكن يحول بينه وبين ضم مصر الى الامبراطورية البريطانية الا حقوق الدولة العثمانية المكفولة بمعاهدات دولية ! •

ولذلك فقد دعا مصطفى كامل فى برنامج حزبه الى « بذل الجهود لتقوية علائق المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية » ! • وكان يؤمن بأن انقطاع هذه العلائق يؤدى الى سقوط مصر فى يد الانجليز ! — أو على حد قوله : « ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا ، أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة

الفرنسية الانجليزية (يقصد الوفـاق الودى) ألا تصـير ولاية انجليزية ؟ » ٠

وعلى ذلك فان الاستقلال الذى كان يطـالب به مصطفى كامل ، كان هو الاستقلال الذى حددته معاهدة لندن عام ١٨٤٠ والفرمانات السلطانية الصادرة الى خديو مصر ـ أى الاستقلال الذاتى فى اطار السيادة العثمانيـة ! ٠ ولم يكن فى وسعه أن يطالب بأكثر من ذلك فى ظل الاحتلال البريطـانى ، والا أضر بالمصالح الاسلامية ! ٠

وكمـا أن مصطفى كامـل لم يستطع أن يتحدى المنـاخ الاسلامى وفكرة الجامعة الاسلامية التى تتطلب التمسك بالرابطة العثمانية ، فكذلك لم يستطيع أن يتحدى المناخ الاجتمـاعى وميراث التقاليد الاجتماعية والدينية ٠ لأن مثل هذا التحدى كان كفيلا بأن يفقده ثقة الجماهير ! ٠

ولذلك كان موقفه الاجتمـاعى رجعيـا ! ٠ فقد هـاجم قاسم أمين شـهورا طويلة ، لأنه دعا الى عمـل المرأة وتحرير المرأة ! وكان من رأيه أن « حرية المرأة لا محل للحديث عنها الآن ! ، وعملية التطور الطبيعى تسير سيرها المحتوم » ٠ كمـا عارضت جريدته سفور المرأة مهاجمة شديدة ٠

كذلك وقف مصطفى كامل موقفا محافظا ورجعيا فى قضية زواج الشيخ على يوسف من ابنة السيد عبد الخالق السادات كما رأينا • فقد أنكر حق المرأة الرشيد فى تزويج نفسها زواجا شرعيا ممن اختارته واختارها ، اذا عارض ولى أمرها ! • وتبنى وجهة النظر التى تقيم مفهوم « الكفاءة الاجتماعية » بين الزوج والزوجة على أساس الأصل والشرف الموروث ! ، وليس على أساس جهد الانسان الشخصى للرقى بنفسه ! ـ وهى وجهة نظر اقطاعية رجعية •

وفى اطار نظرته الى الاحتلال باعتبــاره أكبر خطر يعوق تقدم الأمة ، فقد عمد الى الحفاظ على الوحدة الوطنية والقومية عن طريق الدعوة الى « انهاض الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، لأنه ممثل النشاط المصرى ومصــدر كل خير ونعيم » • وفى الوقت نفسه عن طريق الدعوة الى وحدة المسلمين والأقباط • ففى خطبته بالاسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧ وقف يقول : « كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو الى الشقاق والبغضــاء وهــذه الدعوة مناهضة للوطنية الصحيحة ؟ • فالأقبــاط أخوة لنا فى الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطــة ، وقد عشــنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق » •

وكان مصطفى كامل أول من أشرك الأقباط فى الحــركة الوطنية ، فقد اصطفى اليه ويصا واصف ومرقص حنا • وكان

ويصا واصف عضـوا منتخبا فى اللجنة الادارية الأولى للحزب الوطنى ، وقد أعلن مصطفى كامل أن « المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والاخلاق وأسباب المعاش : ولايمكن التفريق بينهما مدى الأبد » •

وكان مفهوم مصطفى كامل للحرية يشمل البلاد وشعبها • فكان « جـلاء الانجليز » وسيلته لتحرير أرض مصر ، وكان « الدستور » وسيلته لتحرير الشعب المصرى •• ففى خطبته بمسرح زيزينيا بالاسكندريـة يوم ٢١ مايو ١٩٠٢ ، أكد على ضرورة انشـاء مجلس نيابى لمراقبـة أعمال الحـكومة وتقييد أعمالها ، وكأداة لاصلاح عيوب الحكم • ولكنه كان يرى أن الاستقلال ــ بالمعنى الذى ذكرناه ، وهو الاستقلال الذاتى فى اطار السيادة العثمانية ــ هو المدخل الحقيقى للدستور • أو على حد قوله فى خطبته بالاسكندريـة يوم ٧ يونيـة ١٩٠٤ « أن الاستقلال وحده هو الذى يحمى البلاد والممالك من كل بلاء ، ويدفع عنها اعتداء الغير ، ويرقى ملكة الأفراد ، ويهب الشعوب الحريـة والحـكومة الدسـتورية ، والسـيادة الداخليـة والخارجية » •• ومعنى ذلك أنه كان يعتبر الاحتلال مسئولا عن حرمان مصر من الدستور وليس الخديو ! • وهو صحيح •

ومنذ عام ١٩٠٣ أخذت صحة مصطفى كامل تتأثر بهـذا النضال الذى لا يهن ولا يهدأ • وقد كتب الى مدام جولييت آدم

فى ٢٥ سبتمبر ١٩٠٣ يخبرها بمرضـه وبأن الأطباء رأوا من الواجب عليه قضاء معظم ذلك الشهر فى « التيرول » للاستشفاء . وكان تعليقه : « لهم الحق فى ذلك ، فانى لم أشفق على نفسى » .

وفى ٢٥ يونية ١٩٠٥ كتب اليها خطابا يشكو اليها من أن « العمل قد أضنانى الى حد أشعر معه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذى أعيش فيه » ! . ثم ألقى هـذه العبارة الغريبة : « كأن الطبيعة قد خالفت سنتها ، اذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى » ! .

وكان فى أوروبا فى صيف عام ١٩٠٦ للاستشفاء ، ولكن حادث دنشواى انتزعه انتزاعا ، فكان من نشاطه ما مر بنا ، وألف الحزب الوطنى بينما كان مرض الدرن يفترس صـدره ، وألقى خطبة يوم ٢٧ ديسمبر عام ١٩٠٧ ، المشهورة والمعروفـة بخطبة الوداع ، بينما كان يقترب حثيثا من الموت ! . ولذلك عاد بعدها الى غرفتـه ولم يتركها حتى مات يوم الاثنين ١٠ فبراير عـام ١٩٠٨ .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل انه كان فى عصر ذلك اليوم جالسا مع أحد زملائه طلبة مدرسـة الحقوق الخديوية على باب داره ، « عندما جاز الطريق أمامنا رجل ممتط جوادا . فلما كان بازائنا وقف برهة فحيانا ، وقال : أبقى الله حياتكم ،

الباشـــا توفى ! • وكان زميلى من المتشيعين للحــزب الوطنى المتطرفين فى تشيعهم ، فلما سمع قول الناعى سأله فى لهفــة : مصطفى كامل ؟ فأجابه الرجل منطلقا بجواده : نعم : ولكم طول البقاء ! • وتركنا أنـــا وصاحبى واجمين من هول الخبر » •

وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد فى العاصمة وفى مصر كلها • لم يشغل الناس شيء فيه غير جنازة الزعيم الذى مات فى شرخ الشباب ! • فالمدارس والهيئات الوطنيــة كلها تفكر فى تنظيم الجنازة ، وأهل الريف يفدون من أطراف البلاد للاشتراك فيها . والحكومة تعد وسائل الأمن والنظــام ، والأجانب الذين رأوا العاصمة جللت بالسواد ، ورأوا أهلها اتشحوا بأسباب الحداد ، كانوا يفــكرون فى العمق الذى تغلغل اليه الروح الوطنى من سويداء نفس هذه الأمة •

فلما سار النعش يحمله على أعناقهم أهل دنشواى ، صمتت كل المدينة ، ولم يبق منها أثر لحيــاة الا فى مشهد وداع هــذا الرجل فى رحلة الأبد ! • لقد كان يوم ١١ فبراير ١٩٠٨ هو اليوم الذى اختلج فيه قلب مصر للمرة الثانية منذ الاحتلال ، أما اليوم الأول فكان يوم تنفيذ حكم دنشواى ! •

وربما كان أحسن وصف لمصطفى كامل هو الذى جاء من رجل ربطتــه الأقــدار به برباط غريب من الود والخصــام ،

والتمرد والولاء ، والحب والكراهيـة ، وهو الخديو عباس حلمي . قال : « كان مصطفى كامل فتى خلع عليه الشـباب كل نعمة ، بما فيها نعمة الوهم المقدس ! . وكان قد آثر الحيـاة الروحية على الحياة المـادية . وكان حديث العهد بذلك البلد القديم ، الذى لم تكن هالات المجد ترتفع فيه الا على القبور ! . وكان لا يعرف شيئا من الوضاعة والمساومات السياسية . وكان مستقيمـا . وتحت مظهره اللطيف كانت تكمن روح متفتحـة لكل الأحاسيس ، وقلب حساس لكل ألوان الرقة والحنـان . وقد زانه الله بالحجى (العقل والفطنة) . وكانت بلاغتـه واضحة وحارة ، وكان أسلوبه الرشيق العامر بالصور ينتقل من البساطة الانجيلية الى بلاغة الخطيب الممتع العظيم ! . وقد أوتى موهبة الاقناع ، وسحر الاشعاع الذى يؤتاه الحواريون والأنبياء ! . وكان الحب الذى يكنـه لوطنـه ينبع من حماسـة لا تفقده سيطرته على عقله » ! .

تمت

فهرس تفصيلى

الصفحة

تقديم « تاريخ المصريين » ٣
تقديم الكتاب ٩
نشأة مصطفى كامل ١١
لقاء مصطفى كامل بعبد الله النديم ١٨
مصطفى كامل ودروس الثورة العرابية ٢٢
تولى عباس حلمى العرش ٢٣
نشأة العلاقة بين عباس حلمى ومصطفى كامل ٢٥
احتكاك مصطفى كامل بأوروبا ٢٧
استخدام عباس حلمى لمصطفى كامل فى العمل الوطنى
الوطنى وارساله الى باريس ٣١

الصفحة

مصطفى كامل ودى لونكيل فى باريس ٣٢

الخلاف فى القصر حول عودة مصطفى كامل الى مصر ٣٩

نزعة مصطفى كامل الفردية وتطلعه المبكر الى الزعامة ... ٤٤

أزمة مصطفى كامل النفسية وسخطه لأنه ولد مصريا ! ٤٦

قطع عباس حلمى المال عن مصطفى كامل لحمله على العودة الى مصر ٤٧

قرار مصطفى كامل بعدم العودة وطلبه المال من أصدقائه ٥٢

تجمد نشاط مصطفى كامل فى باريس وعودته الى مصر ٥٤

سعى مصطفى كامل لاستئناف علاقاته مع الخديو ... ٥٥

عودة العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ٥٧

تأليف « الحزب الوطنى السرى » تحت رئاسة الخديو ... ٦٠

نشاط مصطفى كامل فى أوربا عام ١٨٩٦ ... ... ٦٣

طلب مصطفى كامل للتجنيد ٦٤

مصادر تمويل مصطفى كامل ٦٥

الصفحة

موقف مصطفى كامل من حملة مارشان وحادثة فاشودة ٦٦

صـــدور جريدة « اللواء » ٦٩

قضـــية زواج الشيخ على يوسف وأثرها على علاقــات
مصطفى كامل بالخديو ٧١

الوفاق الودى بين فرنسا وانجلترا عام ١٩٠٤ ... ... ٧٤

بروز زعامة مصطفى كامل بعد صدور اللواء ٧٦

مصطفى كامل وحادثة دنشواى ٨٠

فلسفة مصطفى كامل السياسية والاجتماعية ٨٩

رقم الايداع ١٩٨٨/١٩٨٧
الترقيم الدولى ١ ـ ١٢٦٣ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

تعلم المصريون تاريخ مصطفى كامل من منظور الحزب الوطنى ومؤرخه الكبير عبد الرحمن الرافعى . وهو منظور يصوِّر الزعماء فى هالة من البطولة الفذة المجردة من الأخطاء البشرية . على أنه لما كانت المدرسة التاريخية الحديثة تنظر إلى البطولة الشعبية فى صورتها الإنسانية ، وفى إطار التحامها بالشعب صانع البطولات لمن هنا كانت هذه الدراسة التاريخية عن مصطفى كامل فى محكمة التاريخ

٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب